

الفصل الأول

مدينة يثرب والهجرة

التمهيد للهجرة :-

ابتدأ الرسول الكريم محمد (ﷺ) دعوته للإسلام سراً ، حيث كان لا يظهرها إلا لمن يثق به ، ثم أمره (ﷺ) بالجهر بدعوته بعد ثلاث سنين⁽¹⁾ كما جاء في قوله تعالى : «فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ»⁽²⁾ .

فبدأ الرسول بإعلان دعوته ، واشتدت خصومته مع قومه فصبوا جام غضبهم على أتباع هذه الدعوة ، وآذوهم اِذاءً شديداً ، فطلب منهم الرسول (ﷺ) قائلاً : (لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً)⁽³⁾ ، فكانت الهجرة الأولى إلى الحبشة في السنة الخامسة من البعثة⁽⁴⁾ ، وبقي هو في مكة يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، لهذا لجأت قريش إلى أسلوب جديد ، وهو أسلوب الضغط على بني عبد المطلب ، فقررت مقاطعتهم وعزلهم في شعب أبي طالب ، وذلك لمنعهم من حماية الرسول (ﷺ) والتخلي عن نصرته ، إلا أنه استمر في دعوته وفشلت المقاطعة⁽⁵⁾ ، وتكالتبت المحن على الرسول محمد (ﷺ) خاصة بعد فقده أكبر سنيين له في الحياة ، عمه

(1) ابن الأثير ، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني ، (ت-630هـ) ، الكامل في التاريخ ، المطبعة المنيرية ، (دمشق-1349هـ) ، ج 2 ، ص 40 .

(2) سورة الحجر ، الآية 94 .

(3) ابن هشام ، أبو محمد عبد الملك بن هشام ابن أيوب الحميري ، (ت-213هـ) ، سيرة ابن هشام ،

ط 2 ، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون ، مؤسسة علوم القرآن ، (دمشق - د.ت) ، ق 1 ، ص 321 .

(4) شرف ، محمد جلال ، الفكر السياسي في الإسلام ، دار الجامعات المصرية ، (مصر-1978) ، ص 52 .

(5) الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير ، (ت-310هـ) ، تأريخ الطبري ، (تأريخ الرسل والملوك) ، ط 5 ،

تحقيق: محمد أبو الفضل ، دار المعارف ، (القاهرة- د.ت) ، ج 2 ، ص 334-335 .

أبو طالب وزوجته السيدة خديجة ، فكبرت المصيبة على الرسول الكريم (ﷺ) وازداد أذى قريش للرسول وللمسلمين⁽¹⁾ .

وبعد فشل كل الطرق التي استخدمها الرسول الكريم في إقناع قريش على قبول الدعوة⁽²⁾ ، فكر بإيجاد أرضية جديدة صالحة لنشر الدعوة تكون خارج مكة لعلها تكون ملاذاً أكثر أماناً لدعوته الجديدة ، فخرج إلى الطائف وهي لا تبعد أكثر من اثنا عشر فرسخاً من مكة وفي الجنوب الشرقي منها⁽³⁾ ، وقد رده أهلها رداً قبيحاً وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبونهم ويصيحون به⁽⁴⁾ ، وذلك لترابط المصالح بين قريش مكة وثقيف الطائف ، فزادوا من ألمه ، ولكنه عاد إلى مكة وهو أكثر تصميمًا على متابعة الدعوة .

وكان من عادة الرسول (ﷺ) في كل موسم من مواسم الحج عرض دعوته على القبائل الوافدة للحج والتجارة ، إلا أنه لم يتمكن من إقناع هذه القبائل⁽⁵⁾ ، وكان أول اتصال لأهل يثرب بالرسول (ﷺ) أثناء أحد المواسم ، فعرض دعوته على جماعة من أهل المدينة وفيهم سويد بن الصامت^(*) الذي كان يُعرف بالكامل لنسبه وجلدته وشعره ، وهو أحد الرجال البارزين في المدينة ، فدعاه رسول الله (ﷺ)

(1) ابن هشام ، السيرة ، ق1/415 .

(2) المصدر نفسه ، ق1/415-419 .

(3) ابن عساكر ، علي بن هبة الله ، (ت-571هـ) ، معجم البلدان ، تحقيق: جمعية الماجد ودار الفكر المعاصر ، (بيروت-1413هـ) ، ج4 ، ص8-9 .

(4) ابن هشام ، السيرة ، ق1/419 ؛ الطبري ، تأريخ ، 2/345 .

(5) ابن إسحاق ، محمد بن إسحاق بن يسار ، (ت-151هـ) ، سيرة ابن إسحاق ، تحقيق: محمد حميد الله ، معهد الدراسات للأبحاث والتعريب ، (د.م-د.ت) ، ج4 ، ص215 ؛ السهيلي ، عبد الرحمن بن عبد الله ، (ت-581هـ) ، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لأبن هشام ، ط1 ، تحقيق: مجدي منصور الشوري ، دار الكتب العلمية ، (بيروت - 1997) ، ج2 ، ص240 .

(*) سويد بن الصامت : ابن الصلت بن حوط بن حبيب بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الاوس . ينظر: ابن عبد البر ، يوسف بن عبد البر النميري ، (ت-463هـ) ، الدرر في اختصار المغازي

والسير ، تحقيق: شوقي ضيف ، لجنة إحياء التراث الإسلامي ، (القاهرة - 1966) ، ص70 .

للإسلام فأجاب وأمن بالدعوة⁽¹⁾ ، ومن يثرب قدم أيضاً أبو الحسير انس بن رافع جاء إلى مكة ومعه فتية من بني عبد الأشهل^(*) ، منهم إياس بن معاذ يرجون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج⁽²⁾ ، ولكنهم لم يستجيبوا لدعوته ، لأنهم على حد قولهم (جئنا لغير هذا الأمر)⁽³⁾ .

بيعة العقبة الأولى : 621م :

استمر اتصال الرسول (ﷺ) بالقبائل ودعوتهم للإسلام دون أن يثنيه أو يحبط من عزمه عدم استجابة هذه القبائل لدعوته ، ومن تحريض قريش لهم في مواسم الحج المختلفة .

و كان الوحي يصبره ويشد من عزمه كما في قوله تعالى : «فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ»⁽⁴⁾ .

وشاء الله أن يتم نوره وفيه بوعده لرسوله الكريم محمد (ﷺ) ، ببدء مرحلة جديدة ومهمة من مراحل الدعوة الإسلامية ، عندما التقى الرسول عند العقبة^(**) في احد مواسم الحج برهط من الخزرج ، وقد عرض عليهم الإسلام فاستجابوا له ووعدوه

(1) ابن هشام ، السيرة ، ق/1/427 .

(*) بنو عبد الأشهل : وهم بطن من بطون الخزرج من جشم بن الحارث ، ومنهم سعد بن معاذ . ينظر : ابن الكلبي ، أبو منذر هشام بن محمد بن السائب ، (ت-204هـ) ، جمهرة النسب ، ط1 ، تحقيق : ناجي حسن ، عالم الكتب ، (بيروت-1986) ، ص633 .

(2) ابن هشام ، السيرة ، ق/1/427 ؛ الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير ، (ت-310هـ) ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، دار الفكر ، (بيروت-1405هـ) ، ج2 ، ص381 .

(3) ابن عبد البر ، الدرر ، ص70 .

(4) سورة الاحقاف ، الآية 35 .

(**) العقبة : موضع على يسار الطريق القاصد منى الى مكة . ينظر : ابن عبد البر ، الدرر ، ص72 .

بنصرته⁽¹⁾ وقالوا : (إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، وعسى الله أن يجمعهم بك) ⁽²⁾ .

واختلفت المصادر في عدد أفراد هذا الرهط من الخزرج ، بين ستة نفر⁽³⁾ ، وبين ثمانية نفر⁽⁴⁾ وغادروا الى المدينة ، فحدثوا قومهم عما سمعوا وامنوا به ودعوههم الى الإسلام ، حتى انتشر فيهم الإسلام انتشاراً سريعاً ، حتى إذا كان الموسم القادم أي السنة الحادية عشرة من البعثة قدم وفدٌ من أهل المدينة وكان اثنان منهم من الاوس والبقية من قبيلة الخزرج⁽⁵⁾ ، ويذكر أن عبادة بن الصامت^(*) كان فيمن حضر العقبة الأولى قال : (فبايعنا رسول الله (ﷺ) بيعة النساء ، وذلك قبل أن يفترض علينا الحرب على أن لا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ، ولا نزني ولا نقتل أولادنا ولا نأتي ببهتان نفتر به بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في مكروه . . .)⁽⁶⁾.

وقد وردت بنود بيعة العقبة في القرآن الكريم كما جاء في قوله تعالى :
﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ
عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا
يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ

(1) الطبري ، تأريخ ، 354/2 .

(2) ابن هشام ، السيرة ، ق1/429 .

(3) ابن هشام ، السيرة ، ق1/429 ؛ ابن كثير ، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمرو (ت-774هـ)

، البداية والنهاية ، مطبعة السعادة ، (مصر-1932) ، ج3 ، ص149 .

(4) ابن سعد ، أبو عبيد الله محمد بن سعد ، (ت-230هـ) ، الطبقات الكبرى ، دار صادر

(بيروت-1960) ، ج1 ، ص218 .

(5) ابن هشام ، السيرة ، ق1/433 .

(*) عبادة بن الصامت : بن قيس من الخزرج ويكنى أبو الوليد وكان احد النقباء الاثنى عشر في بيعة

العقبة ، وشهد بدر والمشاهد كلها ، وتوفي في الرملة من الشام سنة أربع وثلاثين . ينظر : ابن

قتيبة ، أبي محمد عبد الله بن مسلم الدينوري ، (ت-276هـ) ، المعارف ، تحقيق : ثروت عكاشة ،

مطبعة دار الكتب ، (القاهرة - 1960) ، ص255 .

(6) ابن هشام ، السيرة ، ق1/433 ؛ الطبري ، تأريخ ، 355/2 ؛ الطبري ، تفسير ، 28/77-81.

أَيْدِيَهُنَّ وَأَرْجُلَهُنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ
وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ⁽¹⁾ .

ويبدو أن المعنى الظاهر للآية واستخدام نون النسوة بيعة خاصة بالنساء لهذا سميت (بيعت النساء) ولكنها في الحقيقة بيعة عامة شملت النساء والرجال وكما ذكرنا من خلال مقولة عبادة بن الصامت ، ويذكر إنها ربما سميت ببيعة النساء لوجود عفراء بنت عبيد بن ثعلبة بها ، وهي أول امرأة بايعت الرسول (Δ)⁽²⁾ ، فاعتبرت ممثلة عن المؤمنات .

ويبدو أن هذا الانتشار السريع للإسلام في يثرب كان لعدة أسباب منها : مجاورة العرب لليهود ، واليهود أصحاب كتاب وكانوا يسمعون منهم عن النبي المنتظر الذي يهددون العرب به قائلين : (إن نبياً يبعث الآن نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وثمود)⁽³⁾ ، وكذلك سماع العرب من اليهود الكثير من الأمور بشأن الدين والتوحيد وعبادة الله وحده ، فولد ذلك استعداداً كبيراً لدى عرب يثرب عند سماعهم بنبي عربي يحدثهم بلسانهم ، وبالمنطق والعقل ويدعوهم الى عبادة اله واحد وترك عبادة الأوثان التي لا تضر ولا تنفع ، وكذلك ما أبداه الرهط من حماسة في أجابتهم لرسول الله الى الإسلام ، وأيضاً ما أبداه أهل يثرب من الاوس والخزرج من تفهم واستعداد لقبول الدعوة لأنهم لا يملكون تلك المصالح الاقتصادية والسياسية المرتبطة بعبادة الأصنام بل العكس ، حيث كانت مصلحتهم في هذه الدعوة التي تدعوا الى توحيد القلوب على محبة الله ونبذ الشرك وترك الصراعات والحروب التي كان آخرها يوم بعاث آخر حرب بين الاوس والخزرج والتي أفنت الكثير من الطرفين فلذلك كانوا يتطلعون الى شخصية عادلة ومحايدة من خارج يثرب تعمل على توحيدهم وعلى حل مشاكلهم ، وبعد انتهاء الموسم أرسل النبي (Δ) مع الرهط

(1) سورة الممتحنة ، الآية 12 ، وسنذكر شرحها لاحقاً .

(2) العساف ، الشيخ احمد محمد ، خلاصة الأثر في سيرة سيد البشر ، ط1 ، دار إحياء العلوم ، بيروت- (1978) ، ص75 .

(3) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، 67/2 .

المبايع في بيعة العقبة الأولى مصعب بن عمير(*) وأمره أن يقرءهم القرآن ويفقههم في الدين ، وكان منزل مصعب بن عمير قد تحول نزوله إلى دار سعد بن معاذ(*) .

بيعة العقبة الثانية :

ما إن حل موسم الحج التالي لبيعة العقبة الأولى أي السنة الثانية عشر للبعثة النبوية والموافق 622م ، وبعد انتشار الإسلام في يثرب توجه وفد آخر من أهل يثرب يبلغ ثلاثة وسبعين(**) من الذين اسلموا في يثرب ومعهم امرأتان ، ومعهم مصعب بن عمير الى مكة لأداء فريضة الحج ولدعوة الرسول للهجرة الى يثرب خوفاً وحرصاً عليه من أذى واضطهاد مشركي قريش .

وفي أواسط أيام التشريق وواعدوا رسول الله بلقائه في الشعب عند العقبة في المكان نفسه الذي بايع فيه أصحابهم في العام السابق ، بيعة العقبة الأولى(1) ، ولما اجتمعوا في العقبة شيئاً فشيئاً تكلم رسول الله (ﷺ) فتلا القرآن ودعا الى الله

(*) مصعب بن عمير: بن عبد مناف بن قصي القرشي العبدري ، يكنى أبا عبد الله ، وكان قبل الإسلام فتى مكة شاباً وجمالاً ، وكان قد بعثه رسول الله (ﷺ) الى المدينة قبل الهجرة ليقرئهم القرآن ، وهو أول من قدم عليهم من المهاجرين ، قتل يوم احد شهيداً ، وكان يدعى القارئ المقرئ . ينظر : ابن عبد البر ، يوسف بن عبد الله بن محمد ، (ت463هـ) ، الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، دار الجيل ، (بيروت-1412هـ) ، ج1 ، ص81 .

(*) سعد بن معاذ : ابن النعمان بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الاشهل السيد الكبير الشهيد الاوسي الأنصاري ، وكان لإسلامه دور كبير في إسلام بني عبد الاشهل ، وقد شهد بدرأ ورمي يوم الخندق فعاش شهراً ثم مات . ينظر: الذهبي ، شمس الدين محمد بن احمد بن احمد بن عثمان (ت748هـ) ، سير أعلام النبلاء ، ط9 ، تحقيق: شعيب الارناؤوط ، (بيروت-1413هـ) ج1 ، ص279 .

(**) يوجد اختلاف في الروايات في عدد المشاركين في البيعة ، فابن هشام ذكر عددهم (ثلاث وسبعون) رجلاً ومعهم امرأتان . ينظر: السيرة ، ق1/441 ؛ ابن سعد والطبري فيذكران عددهم (سبعون) رجلاً ومعهم امرأتان . ينظر: الطبقات ، 1/224 ، وينظر ، تأريخ الطبري ، 2/362 .

(1) ابن هشام ، السيرة ، ق1/441 ؛ المقرئ ، تقي الدين احمد بن علي ، (ت845هـ) ، إمتاع الأسماع ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، (القاهرة-1941) ، ج1 ، ص34 .

ورغب في الإسلام وخاطب المبايعين قائلاً : (أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم) (1) .

ورد عليه البراء بن معرور وهو من سادة وفد يثرب قائلاً : (والذي بعثك بالحق نبياً لنمنعك مما نمنع منه أزرنا فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر) (2) ، ثم بايعه الجميع ، وطلب منهم رسول الله (ﷺ) قائلاً : (إن موسى اخذ من بني إسرائيل اثني عشر نقيباً فلا يجدن منكم احد في نفسه أن يؤخذ غيره فإنما يختار لي جبريل) (3) فلما تخيرهم قال للنقباء : انتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم ، وقال الرسول (ﷺ) : وأنا كفيل قومي .

ويذكر الطبري (4) ، أن عدد النقباء اثنا عشر نقيباً ، تسعة من الخرج وثلاثة من الاوس ، وسميت هذه البيعة (بيعة الحرب) كما أوردت الروايات ، إن العباس بن عباد بن نضلة الأنصاري اخو بني سالم خاطب قومه قائلاً : (يا معشر الخرج ، هل تدرون علام تباعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم ، قال : إنكم تباعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس) (5) .

وقد صور لنا القرآن الكريم هذه البيعة تصويراً بلاغياً وفنياً رائعاً في قوله تعالى : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَنَت طَّائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ» (6) .

(1) ابن هشام ، السيرة ، ق/1/441 .

(2) ابن هشام ، السيرة ، ق/1/442 ؛ المقريزي ، إمتاع الأسماع ، 34/1 .

(3) ابن سعد ، الطبقات ، 1/223 ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، 3/112 .

(4) تاريخ ، 2/363 .

(5) ابن هشام ، السيرة ، ق/1/443 .

(6) سورة الصف ، الآية 14 ؛ وينظر سورة آل عمران الآية 52 أيضا قد جاءت بنفس المعنى .

وقد أطلق على هؤلاء المبايعين من الاوس والخزرج بالأنصار ، وكانوا يفخرون على القبائل إن الله سماهم في كتابه العزيز دون غيرهم⁽¹⁾ .
وتمثل بيعة العقبة الأولى وبيعة العقبة الثانية خاصة حجر الزاوية في بناء الدولة الإسلامية وسلطتها في المدينة فيما بعد .

هجرة المكيين - هجرة الرسول (ﷺ) :

بعد أن توثق رسول الله (ﷺ) من صدق الأنصار ونصرتهم بدأ يحث المسلمين على الهجرة الى المدينة ، ورجع الوفد المبايع من الأنصار إلى المدينة معلنين إسلامهم ، وانتشر الإسلام بشكل كبير في المدينة ، ولم يبق إلا القليل من الذين لم يؤمنوا في المدينة ، وبعد تشديد وتضييق أهل مكة على المسلمين ومحاولت فتنهم عن دينهم بشتى الوسائل وخاصة بعد أن علمت قريش بأمر البيعة ، وشكى المسلمون ذلك الى الرسول (ﷺ) فاخبرهم بأني : (قد رأيت دار هجرتكم بسبخة ذات نخل بين لابتين وهما الحرتان . ثم مكث أياماً ثم اخبرهم مسروراً : قد أخبرت بدار هجرتكم وهي يثرب ، فمن أراد الخروج فليخرج إليها)⁽²⁾ ، ويضيف الطبري⁽³⁾ ، أن رسول الله (ﷺ) اخبر المسلمون قائلاً : (إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً آمناً فيها) ، فخرج المسلمون أرسالاً أفراداً وجماعات مهاجرين الى الله والى المدينة في أواخر ذي الحجة من السنة الثالثة عشرة من البعثة ، ولم يبق في مكة من المسلمين إلا من حبس أو فتن إلا على بن أبي طالب (◀) وأبو

(1) الطبري ، تفسيره ، 92/28 ؛ القرطبي ، محمد بن احمد بن أبي بكر ، (ت671هـ) ، الجامع لأحكام القرآن ، ط2 ، تحقيق : احمد عبد العليم البردوني ، دار الشعب ، (القاهرة-1372هـ) ، ج18 ، ص89 .

(2) ابن سعد ، الطبقات ، 226/1 ؛ الذهبي ، شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان ، (ت748هـ) ، تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام ، مكتبة الفدي ، (القاهرة-1367هـ) ، ج1 ، ص185 .

(3) تاريخ ، 369/2 .

بكر الصديق (◀) بقيا مع رسول الله (Δ) ، وكان أبو بكر يلح على رسول الله بالهجرة فيقول له رسول الله (Δ) (لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً) (1) .

فلما رأت قريش هجرة المسلمين الى المدينة وانتشار الإسلام فيها ، خشوا هذا الأمر عليهم وخاصة أن المدينة تقع على طريق قوافلهم التجارية الذاهبة الى الشام (2) ، فاجتمعوا يتآمرون على الرسول (Δ) في دار الندوة ، واجمعوا على قتله وان يقوم بهذه المهمة شباب من عدة عشائر ، فيضربوه بسيوفهم ضربة رجل واحد فيتفرق دمه بين القبائل فلا يستطيع بنو هاشم المطالبة بدمه .

ولقد وصف القرآن الكريم هذا التآمر بقوله تعالى : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (3) ولما أنبأ (=) رسوله الكريم بالمؤامرة طلب من صاحبه أن يستعد للهجرة واستأجر عبد الله بن اريقط دليلاً لهما في رحلتها ، فلما دخلا غار حراء يقال إن العنكبوت قد سدت على باب الغار وان حمامتين عشعشتا على بابه (4) ، وبكى أبو بكر لشدة حرصه على رسول الله حين مر المشركون قال : لو أن احداً نظر موضع قدميه لرآنا ، فأجابه النبي (Δ) ما ظنك باثنين الله ثالثهما (5) .

-
- (1) الطبري ، تأريخ ، 369/2 ؛ ابن الأثير ، الكامل في التأريخ ، 71/2 .
(2) الذهبي ، تأريخ الإسلام ، 18/5 ؛ السخاوي ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن ، (ت902هـ) ، التحفة اللطيفة في تأريخ المدينة الشريفة ، دار الكتب العلمية ، (بيروت-1993) ، ج 1 ، ص 12 .
(3) سورة الأنفال ، الآية 30 ، وهي من السور المدنية ما عدا الآية : 30 ، فهي مكية ونزلت على الرسول في مكة قبيل الهجرة . ينظر: القرطبي ، تفسير ، 360/7 ؛ ابن النديم ، أبو الفرج محمد بن إسحاق (ت385هـ) الفهرست ، المكتبة التجارية الكبرى ، (القاهرة-1348هـ) ، ص 37 ؛ الزنجاني ، تأريخ القرآن ، ص 38 .
(4) ابن كثير ، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمرو ، (ت774هـ) ، فصول من السيرة ، ط 1 ، تحقيق : محمد العيد ، (بيروت-1399هـ) ، ص 100 .
(5) ابن هشام ، السيرة ، ق 484-492 ؛ ابن حبيب ، الحسن بن عمر (ت779هـ) ، المقتفى في سيرة المصطفى ، تحقيق : د. مصطفى محمد الذهبي ، دار الحديث ، (القاهرة-1996) ، ص 73 .

وقد ورد هذا الحوار في القرآن الكريم : ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (1).

وقد وردت عدة آيات تشير إلى المعنى أعلاه ، كما في قوله تعالى : ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (2) ، حيث كانوا بمكة قليلين مضطهدين يخافون أن يتخطفهم الناس من سائر البلاد وخاصة من مشركي مكة إلى أن أذن الله لهم في الهجرة فانعم عليهم فأواهم إلى المدينة وحبب فيهم أهلها فأووههم ، ونصرهم يوم بدر (3) ، ومن الآيات التي وردت فيها إشارة للهجرة : ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ (4) ، وخرج رسول الله (ﷺ) مع أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) من الغار يحفظ الله وعونه ، وكان أهل المدينة من الأنصار ينتظرون وصول الرسول (ﷺ) بفارغ الصبر بعد أن سمعوا بخروجه من مكة ، حتى وصل في يوم الاثنين لأثني ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة 13 من البعثة (5) .

(1) سورة التوبة ، الآية 40 .

(2) سورة الأنفال ، الآية : 26 .

(3) ابن كثير ، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل القرشي ، (ت774هـ) ، تفسير القرآن العظيم ، ط4 ، مطبعة الاستقامة ، (القاهرة-1956) ، ج2 ، ص300 .

(4) سورة محمد ، الآية : 13 .

(5) الطبري ، تاريخ ، 381/2 .

وأصبح يوم دخول النبي الى يثرب بداية تأريخ جديد لدولة المسلمين حين اختاره الخليفة عمر(◀) كأعظم حدث في تأريخ الإسلام⁽¹⁾ .

لمحة تاريخية عن مدينة يثرب :

تعد يثرب (المدينة) من المدن المهمة عند ظهور الإسلام ، وتعد من حيث الأهمية ثاني مدن الحجاز بعد مكة⁽²⁾ ، وإن كانت الطائف تعد المدينة الثانية بعد مكة في الأهمية الدينية قبل الإسلام كما في قوله تعالى : «وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ»⁽³⁾ . وهي من المدن القديمة ولا يوجد تأريخ محدد لنشئها ، ويرجع تأريخها الى ما قبل الميلاد وقد ورد ذكرها في الكتابات المعينية والسبئية ، وتذكر الأخبار أن أقدم من سكن يثرب قوم يقال لهم (صُعل ، وافالح) ، ثم سكنها العماليق⁽⁴⁾ ، ثم نزحت الى جوارهم بعض القبائل اليهودية والعربية والذين عرف منهم يقيناً عند ظهور

(5) العساف ، خلاصة الأثر ، ص 95 .

(2) الشريف ، احمد إبراهيم ، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ، ط2 ، دار الفكر العربي ، (القاهرة - 1968) ، ص 19 .

(3) سورة الزخرف ، الآية 31 ؛ والقريتان ، هما مكة والطائف ؛ القرطبي ، تفسير ، 83/18 .

(4) ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبو عبد الله الرومي ، (ت 626هـ) ، معجم البلدان ، دار راصد ، (بيروت - 1977) ، ج 5 ، ص 84 ؛ جواد علي ، المفصل في تأريخ العرب قبل الإسلام ، دار العلم

للملايين ، (بيروت وبغداد - 1970) ، ج 4 ، ص 128 .

الإسلام على شكل قبائل كبيرة ، وهم بنو قينقاع ، وبنو قريظة والنضير من اليهود واللاوس والخزرج من العرب⁽¹⁾ .

أما من حيث الموقع والمناخ فتعد يثرب ، إحدى أقسام الجزيرة الرئيسية ، فالبكري⁽²⁾ مثلاً يقول: - إن جزيرة العرب هي المدينة ومكة واليمامة واليمن .

تقع يثرب إلى الشمال من مكة على مسافة تقدر بحدود ثلاثمائة ميل

(4) ، وهي تتوسط الطريق التجاري بين الشام واليمن ، ويذكر ياقوت الحموي⁽³⁾ تقريباً (طول المدينة من جهة المغرب ستون درجة ونصف عرضها عشرون درجة ، وهي في الإقليم الثاني وقدرها مقدار نصف مكة والغالب عليها السباح) .

وتشغل المدينة مساحة من الأرض يبلغ طولها حوالي اثني عشر ميلاً وعرضها حوالي عشرة أميال ، وهي تقع بين جبل أحد شمالاً وجبل عير جنوباً⁽⁵⁾ ،

وأرضها عبارة عن سهل واسع مكشوف من جميع الجهات بين حرتين^(*) بركانيتين هما حرة واقم في الشرق وحرة الوبرة في الغرب ، وهي أقل خصوبة وعمراناً من حرة واقم⁽⁶⁾ ، وحديث الرسول (Δ) عن حرم المدينة دليل على ذلك فعن أبي هريرة أن

(1) البلاذري ، احمد بن يحيى بن جابر ، (ت279هـ) ، انساب الأشراف ، تحقيق: د. محمد حميد الله ، مطبعة دار المعارف ، (مصر-1959) ، ج10 ، ص60.

(2) أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز الاندلسي ، (ت487هـ) ، معجم ما استعجم من أسماء البلدان والمواقع ، ط3 ، تحقيق: مصطفى السقا ، (القاهرة-1949) ، ج10 ، ص5 .

(3) الشريف ، مكة والمدينة ، 18 .

(1) معجم البلدان ، 82/5 .

(5) الملاح ، هاشم يحيى ، الوسيط في السيرة النبوية والخلافة الراشدة ، مطبعة جامعة الموصل ، (الموصل-1991) ، ص33 .

(*) الحرة : ارض ذات أحجار سود نخرة كأنها أحرقت بالنار وجمعها حرات ، والحرار في بلاد العرب كثيرة أكثرها حول المدينة الى الشام وهي حرة شوران وليلى والنار وحرة بني سليم . ينظر: الحموي ، معجم البلدان ، 2 / (219 - 246) ، 250/2 .

(6) السمهودي ، نور الدين علي بن احمد ، (ت911هـ) ، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ، ط1 ، تحقيق: محمد محي الدين ، دار إحياء التراث العربي ، (بيروت-1955) ، ج4 ، ص1182 - 1183 .

النبي (ﷺ) قال : (حَرَمَ ما بين لابتي المدينة على لسانِي)⁽¹⁾ ، لابة : هي الحرة⁽²⁾ ومن الحرات الكبيرة المحيطة بالمدينة حرة قباء تقع الى الجنوب من يثرب ، حيث تحيط الحرات بالمدينة من جميع الجهات ، وتحيط بالمدينة عدد من الجبال حيث يقع جبل أحد في شمالها ، وجبل عير في جنوبها الغربي وجبل سلع الى الشمال الغربي منها ، وفيه النتوء الذي يعرف بجبل (عين) وعليه كان موقف الرماة من المسلمين يوم أحد⁽³⁾ ، وتخرق المدينة عدة أودية مهمة منها وادي بطحان ووادي رانواناء حيث يجريان بين قباء والمدينة ، حيث تقع قرية قباء في جنوب المدينة على بعد ميلين منها⁽⁴⁾ وكذلك وادي العقيق الذي تجري فيه السيول المتأتية من موضع يقال له (بطاويح) ووادي حمراء⁽⁵⁾ ومن أعراض المدينة وأعمالها وعمارتها ، (ظبية ويثرب وتيماء والفرع ووادي القرى)⁽⁶⁾ .

ومن المعالم والمواضع المعروفة في هذه المنطقة ، يثرب ودان والجار - بدر - الصفراء ، ينبع ، رضوى ، بواط ، خيبر⁽⁷⁾ ، وفي الحقيقة أن مدينة يثرب تتألف من مجموعة من القرى تقاربت وتجمعت فتكونت منها مدينة يثرب⁽⁸⁾ .

(1) البخاري ، محمد بن إسماعيل ، (ت256هـ) ، صحيح البخاري ، دار ابن كثير ، ط3 ، (بيروت-1981) ، ج2 ، ص66 ، باب فضائل المدينة.

(5) 0 ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، 4/438.

(3) الشريف ، مكة والمدينة ، 227 .

(4) الاضطخري ، أبو إسحاق ، إبراهيم بن محمد ، (ت346هـ) ، المسالك والممالك ، مطبعة بريل ، (لیدن-1870) ، ص23 .

(5) ابن شبه ، أبو زيد عمر النميري البصري ، (ت262هـ) ، تأريخ المدينة المنورة ، تحقيق: علي محمود بدن ، دار الكتب العلمية ، (بيروت-1996) ، ج1 ، ص106 - 108 .

(6) ابن خرداذبه ، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله ، (ت300هـ) ، المسالك والممالك ، مكتبة المثنى ، (بغداد-1889) ، ص320 .

(7) الهمداني ، الحسن بن احمد بن يعقوب بن داود ، (ت334هـ) ، صفة جزيرة العرب ، تحقيق: محمد بن عبد الله النجدي ، مطبعة السعادة ، (مصر-1953) ، ص219-220 .

(8) الشريف ، مكة والمدينة ، ص294 .

أما المناخ في يثرب فشبيه بمناخ مكة ، فهو شديد الحرارة صيفاً وبارد شتاءً ، وتسقط الأمطار في أوقات قصيرة ولكنها بغزارة محدثة سيولاً في كثير من الأحيان⁽¹⁾ .

وقد أشار القرآن الكريم إشارة ضمنية إلى شدة الحر في فصل الصيف في يثرب ، في سورة النور الآية 59 : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ . . . لا . . . ﴾ ، والمراد بها قيلولة النهار والاستبراد من شدة الحر بالصيف بتخفيف الثياب⁽²⁾ ، وسورة النور من السور المدنية التي نزلت على النبي (ﷺ) في المدينة⁽³⁾ ، وفي حديث عن أبي هريرة عن عبد الله بن عمر عن الرسول (ﷺ) قال : (ثم إذا اشتد الحر فأبردوا عن الصلاة فإن شدة الحر من فيح

جهنم)⁽⁴⁾ ، وعلى العموم فالمناخ في المدينة أفضل من مكة ، حيث تكثر فيها الآبار والعيون واشهرها بئر رومة وبئر عروة وبئر الحفير والجحير⁽⁵⁾ ، وتميزت ارض يثرب بالخصوبة بسبب تربتها البركانية الخصبة ووفرة المياه ، حيث تكثر فيها الزراعة ، وخاصة أشجار النخيل حيث يعتمدون في سقيها على مياه الآبار⁽⁶⁾ .

والشواهد القرآنية كثيرة على انتشار الزراعة في يثرب ، حيث وردت ألفاظ ومفردات كثيرة في السور المدنية تتعلق بالزراعة فيها دلالات واضحة على معرفة

(1) ابن شبه ، تأريخ المدينة ، 108/1 .

(2) الطبري ، تفسير ، 162/18-165 ؛ دروزة ، محمد عزة ، عصر النبي وبيئته قبل البعثة ، مطبعة دار البيقظة العربية ، (دمشق-1946) ، ص 18 ، هامش الصفحة .

(3) الزهري ، محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب (ت154هـ) ، تنزيل القرآن ، ط2 ، تحقيق: صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الحديث ، (بيروت-1980) ، ص29 .

(4) البخاري ، صحيح ، 151/1 .

(5) ابن شبه ، تأريخ المدينة ، 108/1 .

(6) الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص23 ؛ الحموي ، معجم البلدان ، 82/5 .

(*) وسورة البقرة من السور المدنية التي نزلت على رسوله الكريم (ﷺ) في المدينة ، ومن آياتها أيضاً في مجال الزراعة الآية 264 ، 265 .

أهل المدينة بالزراعة ومحاصيلها المختلفة ، إذ ليس من المعقول أن يذكر (⇒) هذه المحاصيل وهم بها جاهلون . ومن تلك الآيات قوله تعالى :-

1- من سورة البقرة(*) ، من الآية 61 ، «وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا... لا .

2- سورة البقرة ، الآية 261 ، «امثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم» لا .

3- سورة البقرة ، الآية : 266 ، «أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ» لا .

وفي سورة الحشر الآية 5 ، دليل على انتشار زراعة النخيل في المدينة كما ذكرنا ونرى ذلك واضحاً في قوله تعالى : «مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ» لا واللينه هنا بمعنى النخلة(1) .

ويورد البلاذري(2) رواية تشير إلى وجود الزراعة في المدينة وحدثت مشاكل بين أصحاب الأراضي . فلولا وجود الزراعة لما حدثت هذه الخصومات منها في سيل مهزور قال :- (قضى رسول الله (ﷺ) في سيل مهزور(*) ، لأهل النخل إلى العقبين ولأهل الزرع إلى الشراكين ثم يرسلون الماء الى من هو أسفل منهم) .

(1) الطبري ، تفسير ، 32/28-33 ؛ دروزة ، عصر النبي ، ص 29 .

(2) البلاذري ، أبي الحسن يحيى بن جابر ، (ت 279هـ) ، فتوح البلدان ، تحقيق: رضوان محمد رضوان ، مطبعة السعادة ، (مصر-1959) ، ص 16 .

(*) وهو عبارة عن سيل من الامطار يتخوف منه الفرق على اهل المدينة وسمي بهذا الاسم نسبة الى بطن الوادي الذي تسيل فيه الأمطار بعد تجمعها . ينظر: ابن شبة ، تاريخ المدينة ، 108/1 .

أما عن تسميات مدينة فيثرب هو الاسم الشائع والمعروف للمدينة قبل الإسلام ، والنسب إليها يثربي ويثربّي واثربّي ، والاسم مشتق من التثريب : وهو اللوم والتعيير ، وهي أيضاً المؤاخذه بالذنب أو الثرب وهو الفساد ، لهذا السبب قيل أن الرسول (ﷺ) نهى عن تسميتها بيثرب⁽¹⁾ وكان يحب أن يسميها طيبة⁽²⁾ ، وقيل يثرب هو اسم أرضها مشتقة من الثرب : أرض حجارتها كحجارة الحرة إلا إنها بيض ، وقيل أنها سميت بيثرب باسم رجل من العماليق وهو يثرب بن ارم لما نزل أول مرة وقومه موضع المدينة⁽³⁾ ، وقد ورد ذكرها بهذا الاسم مرة واحدة في القرآن الكريم في سورة الأحزاب الآية : 13 ، في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ . وكان نزول هذه الآية بعد حفر الخندق ونزول الأحزاب حول المدينة⁽⁴⁾ .

وجاء اسم المدينة من مَدَن بالمكان إذا أقام به ، أو إنها من دان إذا أطاع فالميم زائدة ، لأن السلطان يسكن المدن فتقام له طاعة فيها . . . والمدينة اصطلاحاً بيوت مجتمعة كثيرة تجاوز حد القرى كثرة وعمارة ، ولم تبلغ حد الأمصار ، وقيل يقال لكل مصر مدينة⁽⁵⁾ ، أما اسم المدينة في التأريخ الإسلامي فإنه يراد بها غالباً المدينة المنورة ، ويذكر السهمودي⁽⁶⁾ : (والمدينة وإن أطلق على أماكن كثيرة ، فهو علم مدينة رسول الله (ﷺ) حيث لا يتبادر الى الفهم غيرها) ، وإن التسمية غلبت عليها تضخيماً لها⁽⁷⁾ ، وعن سبب تسميتها فيذكر السهمودي⁽⁸⁾ قائلاً : (لأن

(1) ابن منظور ، لسان العرب ، 1/253 ؛ ابن كثير ، تفسير ، 3/473 .

(2) البكري ، معجم ما استعجم ، 3/90 .

(3) ابن منظور ، لسان العرب ، 1/236 ؛ ابن كثير ، تفسير ، 3/473 .

(4) الطبري ، تفسير ، 21/136-137 ؛ ابن كثير ، تفسير ، 3/473 ، وسنورد تفاصيل ذلك في الفصل

الرابع موضوع (غزوة الخندق) ص 113.

(5) ابن منظور ، لسان العرب ، 5/176 ؛ السهمودي ، وفاء الوفا ، 1/8 ، 9 ، 23 .

(6) وفاء ، الوفا ، 1/23 .

(7) ابن منظور ، لسان العرب ، 13/402 .

النبي (Δ) سكنها وله دانت الأمم) ، وهي دار هجرة المسلمين والنسبة إليها مدني⁽¹⁾ ومن الممكن أن تكون المدينة قديماً تعرف بـ(مدينة يثرب) ثم اختصر الاسم فقليل لها مدينتا أي المدينة كما ذكر الدكتور جواد علي⁽²⁾ .

وجاء ذكر اسم المدينة في القرآن الكريم في عدة آيات بشكل صريح أو بالإشارة لها كما في قوله تعالى في سورة الإسراء ، الآية : 80^(*) ، «وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا» ، ويذكر الطبري⁽³⁾ : - قصد الرسول (Δ) بمدخل الصدق الذي رغب أن يدخله فيه هو مدخله الى المدينة حين هاجر إليها ، وعنى بمخرج الصدق مكة .

وورد اسم المدينة صريحاً في سورة التوبة ، الآية : 101 مما يدل على إن الله (→) سماها هذا الاسم في كتابه العزيز كما في قوله تعالى : «وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ» .

وفي سورة الأحزاب ، الآية : 60 «الَّذِينَ لَمْ يَنْتَهُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ^(*) فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا» .

(8) وفاء الوفا ، 23/1 .

(1) الرازي ، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر ، (ت666هـ) مختار الصحاح ، دار الكتاب العربي ، بيروت-1981) ، ص619 .

(2) المفصل ، 13/4 .

(*) وسورة الإسراء مكية ، إلا الآية : 80 ، فإنها مدنية . ينظر : الزنجاني ، تأريخ القرآن ، 28-29

(3) تفسيره ، 148/15 ؛ ابن كثير ، تفسيره ، 85/3 .

(*) المرجفون : يعني أهل الإرجاف وهم أهل الكذب والباطل . ينظر : الطبري ، تفسير ، 136/2 .

وفي هذه الآية تحذير شديد للمنافقين^(**) والذين في قلوبهم مرض أي ريبة في شهوة الزنا وحب الفجور ويقال لهم الزناة ، ليسلطك (⇒) عليهم ثم لتتفي هؤلاء عن مدينتك فلا يسكنون معك في المدينة إلا قليلاً من المدة والأجل⁽¹⁾ .

وفي سورة الحشر ، الآية : 9 في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْأَيْمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَفَهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ويعني بالدار المدينة المنورة والمتبوءون هم الأنصار في المدينة يحبون المهاجرين⁽²⁾ ، وفي حديث للرسول (Δ) (ما يفتح من مصر أو مدينة عنوة فإن المدينة فتحت بالقرآن)⁽³⁾ .

ومن فضائل المدينة إنها من أحب المدن للرسول (Δ) فقد دعا لها (اللهم إن إبراهيم عبدك وخليتك ونبيك دعاك لأهل مكة وإن محمداً عبدك ونبيك ورسولك دعاك لأهل المدينة بمثل ما دعاك به إبراهيم عليه السلام لأهل مكة ادعوك أن تبارك لهم في صاعهم وفي ثمارهم اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة واجعل ما بها من الوباء بخرم اللهم قد حرمت لابتيتها كما حرمت على لسان إبراهيم (►) الحرم⁽⁴⁾ .

(**) والمنافقون : مفرداً منافق : وهي من الألفاظ المحدثة المشتقة ، ويطلق اسم المنافق من رأى بالاسلام واستتر بالكفر . ينظر: ابن كثير ، تفسيره ، 45/1 ؛ الجاحظ ، عثمان عمرو بن بحر (ت255هـ) ، كتاب الحيوان ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون ، مكتبة مصطفى البابي ، (مصر- د.ت) ، ج 1 ،

ص332 ، وسيتم توضيح مفهوم النفاق والمنافقين في الباب الثاني موضوع (الاوس والخزرج) الانصار) ص 187 .

(1) الطبري ، تفسيره ، 136/21-137 ؛ ابن كثير ، تفسيره ، 473/3 .

(2) الطبري ، تفسيره ، 41/28 .

(3) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص 14 .

(4) الجندي ، أبو سعيد المفضل بن محمد بن إبراهيم ، (ت308هـ) ، فضائل المدينة ، ط 1 ، تحقيق: محمد مطيع الحافظ ، دار الفكر ، (دمشق-1407هـ) ، ص 18 ؛ النويري ، شهاب الدين ، احمد بن عبد الوهاب ، (ت733) ، نهاية الإرب في فنون الأدب ، المؤسسة المصرية العامة ، نسخة مصورة ، (مصر- د.ت) ، ج 1 ، ص 322 .

وصار اسم المدينة أكثر شيوعاً إلى جانب أسماء أخرى ويورد ابن شبه⁽¹⁾ عن رسول الله (ﷺ) ، عشرة أسماء للمدينة هي (المدينة ، وطيبة ، وطابة ، ومسكينة ، وجبارة ، ومحبورة ، ويندد ، ويثرب ، والدار ، والإيمان) ، ويقال أن المدينة مذكورة في التوراة باسم طابة حين قال : (أوحى الله إلى طابة : يا طابة يا مسكينة لا تقبلن الكنوز فاني ارفع اجاجيرك على اجاجير القرى)⁽²⁾ .

ويذكر ياقوت الحموي⁽³⁾ : إن للمدينة تسعة وعشرين اسماً ، أما السهمودي⁽⁴⁾ فقد ذكر لنا أربعة وتسعين من أسمائها وقال : إن كثرة أسمائها دلالة واضحة على شرف المدينة ومكانتها .

الفصل الثاني تنظيم يثرب وتكوين دولة المدينة

النظام السياسي في الحجاز قبل الإسلام :-

كانت القبيلة هي الوحدة السياسية السائدة في الحجاز لأن العرب قبل الإسلام كانوا بدواً أو شبه بدو ، بحيث لم تكن لهم حكومة منظمة ، ولا ملوك يمنعون من تعدي بعضهم على بعض بما لهم من قوة تنفيذية ، إنما كانوا قبائل^(*) منتشرة في الجزيرة العربية كما في قوله تعالى : «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ

(1) تأريخ المدينة ، 104/1 .

(2) ابن عبد البر ، الدرر ، ص 40 .

(3) معجم البلدان ، 83/5 .

(4) وفاء الوفا ، 11/1-27 .

(*) قال بعضهم سبع طبقات ، شعب وقبيلة ، وعمارة وبطن وفخذ وحبل وفصيلة ، وسميت الشعوب شعوباً لأن القبائل تشعبت منها ، وسميت القبائل قبائل لأن العماير تقابلت عليها . ينظر: الهمداني ، أبي محمد الحسن بن احمد بن يعقوب ، (ت306هـ) ، كتاب الإكليل ، تحقيق: محمد بن علي الاكوع ، مطبعة السنة المحمدية ، (القاهرة-1963) ، 22/1 .

لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (1) .

والقبيلة :- هي عبارة عن مجموعة من الأفراد تقيم في مكان واحد يسمى الحمى ، ويرتبط أبناء القبيلة برابطة النسب واتحاد الدم ، ويسعون لما فيه مصلحة القبيلة (2) ، ولها نظام حكومي على رأسه شيخ القبيلة .

وشيوخ القبائل هم أصحاب الكلمة العليا فيها والسلطة والحكم في قبائلهم بالتوارث وهذه مستقرة على الأغلب في بيوت معروفة وهم الذين يقودون قبائلهم في المعارك وينظمون شؤونها الداخلية ويمثلونها في الشؤون الخارجية ويعقدون باسمها المواثيق والأحلاف ، والى جانب شيخ القبيلة في الحكم مجلس القبيلة الذي يتألف من رؤساء العشائر وكذلك كبار السن وأصحاب الرأي والحكمة مما يضفي على حكومة القبيلة صفة ديمقراطية ولا يوجد للقبيلة دستور أو قانون مكتوب ولكن قانونها الأعراف والتقاليد المتوارثة (3) .

يقول اليعقوبي (4) : (وكان للعرب حكام ترجع إليها في أمورها وتتحاكم في مناظراتها وموارثتها ومياها ودمائها) .

ومن حكام العرب التي تردد أسماؤهم في كتب التاريخ : كالأفعى بن الأفعى الجهمي ، واسيد ابن عمرو ابن تميم ذا الأعواد (5) ، وهرم بن قطبة وقس بن ساعدة الأيادي (6) ، وكان للسلطات الحكومية للمدن الرئيسية والتي تنتشر هذه القبائل حولها

(1) سورة الحجرات ، الآية : 13 .

(2) أمين ، احمد ، فجر الإسلام ، ط3 ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، (القاهرة-1935) ، ج1 ، ص276 ؛ العلي، صالح احمد، محاضرات في تاريخ العرب، ط3 ، مطبعة الإرشاد ، (بغداد-1964) ، ج1 ، ص127 .

(3) حسن ، إبراهيم حسن ، النظم الإسلامية ، ط1 ، مكتبة النهضة ، (مصر-1939) ، ص193 .

(4) احمد بن أبي يعقوب بن جعفر ، (ت292هـ) ، تأريخ اليعقوبي ، المكتبة المرتضوية ،

(النجف-1358هـ) ، ج1 ، ص214-215 .

(5) المصدر نفسه ، 28-24/1 .

(6) الجاحظ ، أبي عثمان عمرو بن محبوب ، (ت255هـ) ، البيان والتبيين ، ط3 ، تحقيق: حسن

السندوبي ، مطبعة الاستقامة ، (القاهرة-1947م) ، ج1 ، ص345 .

من كلمة نافذة وصلات وثيقة ، تقوم هذه القبائل برعاية الصلات والروابط بسبب المصالح المتنوعة أو عامل الرغبة والرغبة وخاصة للسنن التي تسنها المدن للحياة الاجتماعية والدينية⁽¹⁾ ، ونستطيع أن نرى ذلك من خلال رفض القبائل العربية في مواسم الحج المختلفة من الاستجابة للرسول (ﷺ) في دعوته للإسلام ، خوفاً من تضرر مصالحها مع قريش ، أما مكة التي كانت تحتل مكانة متميزة بين العرب ، بسبب وجود بيت الله الحرام وقدسيتها في نفوسهم والتي كانت تحج إليه كل عام⁽²⁾ ، وكذلك موقعها الوسط على طريق القوافل التجارية ، مما اتاح لأهلها الانفتاح والإطلاع على ما لدى الأمم الأخرى ، لهذا نراها بلغت شيئاً من الرقي النسبي في نظام الحكم .

وقام قصي بن كلاب جد رسول الله (ﷺ) بتنظيم مكة والاهتمام بشؤون القرشيين في أوائل القرن الخامس الميلادي ، وقد جمع بطون قريش كلها وألف من رؤسائهم مجلساً يُعرف بالملأ - وكان ينظر في شؤون الكعبة وأمور التجارة وتجهيز القوافل التجارية ودخول الحروب وعقد الاتفاقيات والمعاهدات⁽³⁾ وهذا النظام شبيه بحكومة الجمهورية التي يسيطر عليها أفراد قلائل أو مجلس من الأعيان والتجار أصحاب الثروة والجاه⁽⁴⁾ ، وبنى قصي بن كلاب دار الندوة قرب الكعبة في الجهة الشمالية فأصبحت مجلساً لقريش⁽⁵⁾ ، ومقرّاً لمشاوراتهم وكذلك لعقد المحالفات مع القبائل والتداول في شؤونها هذا فضلاً عن تنظيم أمور الحج وتوزيع الأعمال

(1) دروزة ، عصر النبي ، ص 222 .

(6) ولمزيد من الإطلاع عن نشأة بيت الله الحرام وشعائر الحج فيه ينظر الازرقعي ، محمد بن عبد الله بن احمد ، أخبار مكة ، مطبعة المدرسة المحروسة ، (قتنبغة-1375هـ) ، ج 1 ، ص 33 .

(1) ابن هشام السيرة ، ق 1/123-130 .

(4) ولمزيد من الإطلاع ينظر: معروف ، ناجي ، أصالة الحضارة العربية ، ط 1 ، مطبعة الزمان ، (بغداد-1969) ، ص 89 ؛

الطيباوي ، عبد اللطيف ، محاضرات في تاريخ العرب والإسلام ، (بيروت-1963) ، ص 120 ؛ حسن إبراهيم ، تاريخ الإسلام ، ص 60-65 .

(5) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، 1/240 .

كالحجاجة والسقاية والرفادة والندوة واللواء ، وكذلك القضاء مما يدل على مدى الرقي لجهازها الإداري ، ومن الأعمال المتعلقة بالقضاء هي الاشناق والديات والمغارم ، وأيضاً اجتماع بعض بطون قريش على حلف الفضول الذي تحالفوا فيه على ألا يكون بمكة قريب أو غريب ولا حر ولا عبد مظلوم إلا كانوا معه حتى يأخذوا له بحقه⁽¹⁾ .

أما يثرب قبل الإسلام فقد كان التشريع فيها راقياً نسبياً ، لاختلاط العرب فيها باليهود ، واليهود أصحاب كتاب لديهم التوراة وشروحها وفيها كثير من الأحكام ، وكانوا متأثرين في شؤونهم للقانون اليهودي⁽²⁾ ، ويبدو أن أهل المدينة من الأوس والخزرج كانوا يدركون أهمية ومعنى الدولة والحكومة ودورها في تنظيم شؤون مدينتهم خصوصاً وإنهم جاءوا من أصول يمانية قد عرفت تأسيس الدول⁽³⁾ ، إلا أن الحروب الطاحنة بين القبيلتين منعتهم من تشكيل حكومة موحدة لهم .

وتذكر الروايات التاريخية أن قبيلة الخزرج وهي كبرى قبيلتي يثرب كانت قد عدت العدة لتنصيب ملكاً عليها ، وهو عبد الله بن أبي بن سلول (ونظموا له الخرز ليتجوه ثم يملكوه عليهم)⁽⁴⁾ ، ولكن هذا الأمر لم يتم ، بسبب هجرة الرسول (ﷺ) إلى المدينة .

وكان دخول رسول الله (ﷺ) إلى المدينة يوم الاثنين لاثنتي ليلة خلت من شهر ربيع الأول فنزل بقباء على كلثوم بن هرم أخي بني عمرو ابن عوف⁽⁵⁾ ،

(1) ابن هشام ، السيرة ، ق1/133 .

(2) احمد أمين ، فجر الإسلام ، 1/278 .

(3) ابن هشام ، السيرة ، ق1/13 .

(4) المصدر نفسه ، ق1/585 .

(5) ابن خياط ، أبو عمرو خليفة بن خياط العصفري ، (ت240هـ) ، تأريخ خليفة بن خياط ، ط1 ، تحقيق: أكرم ضياء العمري مطبعة الآداب ، (النجف-1967) ، ج1 ، ص12 ؛ ابن سيد الناس ، أبو الفتح محمد بن محمد بن عبد الله الشافعي ، (ت734هـ) ، عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير ، ط1 ، مكتبة المقدسي ، (القاهرة-1356هـ) ، ج1 ، ص192 ؛ العيدروسي ، عبد القادر بن شيخ عبد الله ، (ت1027هـ) ، تأريخ النور السافر عن أخبار القرن العاشر ، ط1 ، دار الكتب

وكان يخرج ويجلس للناس في بيت سعد بن خيثمة لأنه كان عزباً لا أهل له⁽¹⁾ .
وكان وصول الرسول الى المدينة بعد ثلاث عشرة سنة من البعثة ، بداية عهد جديد لمجتمع المدينة والدعوة الإسلامية ، وأذاً لإنهاء الدور المكي والانتقال للعهد المدني وبداية لإنشاء دولة المدينة نواة الدولة العربية الإسلامية ، ووضع الأسس للدولة ، ومن العوامل التي ساعدت على قيام دولة المدينة :-

1- إن المدينة لم تحضَ بدولة موحدة وحكومة مركزية تعمل على جمع الشمل وتوفير الأمن والاستقرار ورعاية المصالح واحد أسبابها التركيب السكاني للمدينة المتألف من خمس قبائل رئيسة اثنتين عربية الاوس والخزرج وثلاث يهودية هم :- بنو قينقاع ، بنو النضير ، وبنو قريظة .

2- النزاع والصراع المستمر بين الاوس والخزرج على الأراضي الزراعية ومصادر المياه وبسبب اختلاف المصالح والدور الذي لعبه اليهود في ايقاد نار الفتنة والحرب بين طرفي النزاع وكذلك سعي الخزرج الى إخضاع الاوس لسلطانهم⁽²⁾ .

3- سلسلة الحروب الطويلة والدامية التي أتعبت الطرفين وقضت إلى معظم زعاماتهم التي كانت موضع احترامهم ومؤهلة للسيادة قتلوا في موقعة بُعث آخر معركة دارت بين الاوس والخزرج قبل خمس سنوات من مقدم رسول الله (ﷺ) فعند قدومه الى المدينة لم يجد إلا زعماء ثانويين وهؤلاء كانوا أميل إلى الطاعة⁽³⁾ .

4- إن كثرة الحروب أنهكت قواهم وأضرت بمصالحهم وكانوا يتطلعون للأمن والاستقرار والهدوء والى شخصية عادلة ومحايدة تعمل على حل النزاع

العلمية ،

(بيروت-1405هـ) ، ص 9 .

(1) الطبري ، تاريخ ، 382/2 ؛ المقرئ ، إمتاع الأسماع ، 38/1 .

(2) ابن هشام ، السيرة ، ق/584 .

(3) الشريف ، مكة والمدينة ، 382 .

الدائر بينهم والتي تمثلت في شخص الرسول (ﷺ) الذي يحمل كل الصفات التي تؤهله للقيادة وللرسالة .

5- مجاورة الاوس والخزرج وهم أهل وثنية لليهود وهم أصحاب كتاب وما كانوا يسمعون منهم من قصص الأنبياء خصوصاً ما كان يشيعه اليهود عن قصة النبي الجديد الذي سيظهر ويقاثلونهم معه قتل عاد وشمود⁽¹⁾ ، فأسرعوا إلى اعتناقه قبل أن يسبقهم اليهود إليه .

6- ما يحمله الدين الإسلامي من مبادئ وقيم سامية تعمل على الألفة والمحبة ودفن الأحقاد وما يدعوا إليه من عدل ومساواة ورحمة كلها عوامل ساعدت على بناء المواطن المؤمن في مجتمع المدينة الجديد وأدت إلى تخفيف حدة العصبية القبلية بين الاوس والخزرج ، أصبحت تجمعهم رابطة العقيدة بدل رابطة الدم ، وأصبح الاثنان يحملون اسماً واحداً هو الأنصار .

7- كانت بيعة العقبة الأولى وبيعة العقبة الثانية (بيعة الحرب) حجر الزاوية في بناء الدولة الإسلامية في المدينة والبيعة^(*) اصطلاحاً : هي عبارة عن المعاهدة والمعاقدة ، كأن كل واحد منهما باع ما عنده من صاحبه وأعطاه خالصة نفسه وطاعته ودخيلة أمره⁽²⁾ ، وهو نوع من الميثاق ببذل الطاعة .

وظاهر الآية التي نزلت في بيعة العقبة الأولى (بيعة النساء) وهي سورة الممتحنة ، الآية : 12 ، هي بيعة للنساء فقط ، ولكنها في حقيقتها كانت بيعة عامة للمؤمنين والمؤمنات .

وهو خطاب للرسول الكريم أن يشترط على المبايعين الالتزام بمبادئ الإسلام على حد سواء من كلا الجنسين ، أن لا يشركن بالله ولا يكذبن ولا يفترن ولا

(1) ابن هشام ، السيرة ، ق/547/1 ؛ ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، 67/2 .

(*) والبيعة في اللغة : الصفقة على إيجاب البيع وعلى المبايعة ، أصله بيع والبيع ضد الشراء وهو من

الاضداد ، وبعث الشيء شريته . ينظر: ابن منظور ، لسان العرب ، 26/8 .

(2) ابن منظور ، لسان العرب ، 23/8 .

يزنين ، وإن لا يعصينه في معروف من أمره عز وجل يأمرهن به رسوله الكريم⁽¹⁾ .

وتذكر الروايات ومنها رواية ابن عباس حيث يذكر إن الإسلام : (منعهن أن ينحن وكن في الجاهلية يمزحن الثياب ويخدشن الوجوه ويدعون بالويل والثبور)⁽²⁾ .

والاستغفار في هذه الآية معناه دعاء الرسول للمؤمنات برعاية الله لهن ورضوانه عليهن وتسديد خطاهن ، وبايعهن أي واثقهن على ذلك وفيها إشارة واضحة لحقوق النبي في قيادة الأمة⁽³⁾ .

وقد جاءت بيعة العقبة الثانية التي عقدت بين الرسول (ﷺ) ووفد من الأنصار من أهل المدينة اعترافاً ضمناً على إعطاء السلطة السياسية في المدينة وبذل الطاعة لله ولرسوله الكريم ، فقد عاهدوه أن ينصروه على القريب والبعيد ويحاربوا معه الأسود والأحمر ، واخذ عليهم العهود والمواثيق أن يمنعوه وأهله مما يمنعون منه أنفسهم وأهليهم وأولادهم⁽⁴⁾ ، وفي مقابل ذلك طلب المبايعون من الرسول (ﷺ) أن لا يتخلى عنهم إذا تم له النصر على أعدائه وقد جاء ذلك على لسان أبي الهيثم بن التيهان وهو يخاطب النبي (ﷺ) :- يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبلاً ، وإنا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعني ؟ قال فتبسم رسول الله (ﷺ) ثم قال :- بل الدم الدم والهدم الهدم ، إنا منكم وانتم مني ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم

(1) الطباطبائي ، سيد محمد حسين ، الميزان في تفسير القرآن ، ط3 ، دار الكتب الإسلامية ، (طهران-1402هـ) ، 298/18 .

(2) الطبري ، تفسيره ، 81-77/228 .

(3) الطبري ، تفسير ، 81-79/28 ؛ الطباطبائي ، الميزان ، 298/18 ؛ الحنفي ، الشيخ جلال الحنفي البغدادي ، شخصية الرسول الأعظم قرآناً ، مؤسسة المدرسة البغدادية في العروض والتجويد والسيرة النبوية ، ط1 ، (بغداد-1997) ، 176 .

(4) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، 28/2 ، وهناك أيضاً بيعة أخرى ولكنها جاءت بعد قيام الدولة في المدينة في صلح الحديبية وهي بيعة الرضوان ، حيث جعل الله في هذه البيعة بيعة الرسول هي مبايعة له كما في سورة الفتح ، الآية : 10 .

ثم طلب منهم أن يخرجوا منهم اثنا عشر نقيباً لكي يكونوا على قومهم تسعة من الخرج وثلاثة من الاوس⁽¹⁾ وكان هؤلاء من سادة وأمناء قومهم وأصحاب كلمة فيهم ، ومن هنا بدأت السلطة السياسية للرسول الكريم (ﷺ) في المدينة .

نظام الحكم الإسلامي في دولة المدينة :
نظام الحكم في الشريعة أي القانون : هو عبارة من القواعد والأحكام التي تتعلق بالحاكم أي رئيس الدولة وكيفية اختياره وعلاقة الأمة به والأغراض التي يهدف إليها الحاكم⁽²⁾ .

فأساس نظام الحكم الإسلامي في دولة الرسول (ﷺ) هو الحكم الإلهي اليثوقراطي⁽³⁾ ، فسبحانه وتعالى هو الحاكم الحقيقي للعالم وتعود له ملكيته لا ينازعه فيها احد وقانونه القانون السامي الأبدي .

وقد صوره لنا (ﷺ) في كتابه العزيز في آيات كثيرة تعبر عن ذلك في قوله

تعالى :-

1- «أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ»
(4)

2- «قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ
تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ
وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ» (5)

(1) ابن هشام ، ق 442/1 ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، 162/3 ؛ سورة الصف ، الآية : 14 ذكرت في التمهيد .

(2) زيدان عبد الكريم ، أصول الدعوة ، ط2 ، مطبعة سلمان الاعظمي ، (بغداد-1972م) ، ص 162 .

(3) شرف ، الفكر السياسي ، ص 64 .

(4) سورة البقرة ، الآية : 107 ؛ وينظر أيضاً في سورة البقرة ، الآية : 255 ، قد جاءت في نفس المعنى .

(5) سورة آل عمران ، الآية : 26 .

3- «وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ» (1) .

4- «وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (2) .

فهذه الآيات تظهران الله هو حاكم الكون وهو خالق السماوات والأرض وما فيهن وله ملك كل شيء (3) .

- أساس الحكم و سلطة الرسول (Δ) في دولة المدينة :-

بدأت الدولة الإسلامية نشاطها في المدينة بعد أن تكاملت أركانها ووجدت أرضاً تستقر عليها . وبدأ المجتمع حياته الفعلية واخذ يؤدي وظائفه وتطبيق المبادئ النظرية ، ولم تكن هناك أية وظيفة من وظائف الدولة إلا قامت بها على أسس وقواعد مقررة ، ووضع الرسول (Δ) الأسس والدعائم للدولة الإسلامية الكبرى ، فكانت مدة النبوة في نظر التاريخ الإسلامي مرحلة تأسيس الشرائع ، وقد بين ابن خلدون (4) أهمية الدين في بناء الدولة وقوتها : (لان الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية التي كانت لها في عددها وذلك إن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد في أهل العصبية) ، وتعد هذه الدولة أول محاولة في تأريخ الجزيرة العربية لتنظيم العرب تنظيماً غير مألوف من قبل ، أساسه رابطة الدين لا رابطة الدم كما كان في الماضي ، ومرتبطة بالله الواحد الاحد ، ممثل الوحدة السياسية (5) ، فخفف بذلك من حدة العصبية الجاهلية ، وسهل على القبائل العربية

(1) سورة النور ، الآية : 42 .

(2) سورة آل عمران ، الآية : 189 ؛ ينظر سورة التوبة ، الآية 116 .

(3) الازهري ، أبو منصور محمد بن احمد ، (ت370هـ) ، الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي ، ط1 ، تحقيق :

محمد جبر الالفي ، وزارة الأوقاف ، (الكويت-1399هـ) ، ج1 ، ص419 .

(4) عبد الرحمن بن محمد ، (ت808هـ) ، مقدمة ابن خلدون ، مطبعة الكشاف ،

(بيروت-د.ت) ، ج1 ، ص158 .

(5) حتي ، فيليب ، تأريخ العرب مطول ، دار الكشاف ، (بيروت-1949) ، ج1 ، ص186 .

طاعته والانضواء تحت لوائه ، كما أن الجمع بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية في قبضة رجل واحد قد جنب المجتمع سلسلة المراتب ، حيث لا طوائف كهنوتية ولا طبقات ذات امتيازات ، وأساس نظام الحكم الإسلامي أن الحاكم هو الذي يحكم ولا يملك على عكس جميع أنظمة الحكم في تأريخ الاجتماع الإنساني⁽¹⁾ ، وما دام الله هو الحاكم الحقيقي للعالم وهو خالق الإنسان خليفة في الأرض ، وما دام الله لا يحكم بنفسه فانه يختار ويصطفى الملوك والحكام الذين يكون واجبهم تحقيق العدالة طبقاً للقانون الإلهي ، يقول الله عز وجل : ﴿أَمَّا مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ لا (2) .

وقد اختار (⇒) الرسول محمداً (Δ) أول حاكم للدولة العربية الإسلامية ، ومن مهام الأنبياء الحكم بين الناس وخاصة عند اشتداد مشاكلهم وتآزم أوضاعهم وخصوماتهم⁽³⁾ ، وتمثل ذلك في قوله تعالى : ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ... لا (4) .

حيث أنيط بالرسول (Δ) النظر في كل الأمور التي تخص الدولة والمجتمع والأفراد ، وان يحكم بينهم بالعدل والمساواة وفقاً لشرائع السماء كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً لا (5) .

واستمر حكم الرسول (Δ) عشر سنوات ، كان فيها رئيساً للدولة وقاضياً للمسلمين يقودهم في الحرب ويئهم في الصلاة وله من سلطان الدنيا كل ما للأمر

(1) ل . أ . سيد يؤ ، تأريخ العرب العام ، نقله للعربية ، عادل زعيتر ، دار إحياء الكتب العربية ، (د.م-1948) ، ص 117 .

(2) سورة النمل ، من الآية : 62 .

(3) عرجون ، محمد الصادق ، الموسوعة في سماحة الإسلام ، مؤسسة سجل العرب ، (القاهرة-1972) ، ج 2 ، ص 553؛ محمد جلال شرف ، الفكر السياسي ، ص 66-68 .

(4) سورة البقرة ، من الآية : 213 .

(5) سورة النساء ، الآية : 58 .

المطلق اليدين في رعاياه كما له من سلطان الآخرة كل ما للنبي الذي يعلم من الغيب ما ليس يعلم المحكومون وله سلطان الكفاءة والمهابة ما يعترف به بين أتباعه إلا انه لم يشأ إلا أن يكون الرئيس الأكبر ، بسلطان الصديق ، فكان أكثر رجل مشاورة للرجال وكان حب التابعين شرطاً عنده من شروط الإمامة⁽¹⁾ ، فكان القرآن ينزل بالأحكام والأحاديث النبوية تفصلها مبينة لما يعرض من الحوادث .

وهكذا فان السلطة الزمنية والروحية التي جمعت بيد الرسول الكريم كانت توجب على المسلمين طاعتها والامتثال الى أوامرها .

وهناك آيات كثيرة في كتابه العزيز تحت على طاعة الرسول (Δ) بل منها ما يجعل طاعة الله والرسول (Δ) واحدة ، كقوله تعالى في :

1- سورة آل عمران ، الآية : 32 «أَقْلُ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ» .

ويذكر أنها نزلت في وفد نجران^(*) من النصارى الذين كانوا يدعون محبة الله ، فيخاطب الله الرسول (Δ) ، قل لهؤلاء الوفد أطيعوا الله والرسول محمداً فانتم علمتم يقيناً انه رسولي وبعثته بالحق وتجذونه مكتوباً عندكم في الإنجيل ، فان عرضوا وانكروا نبوتك فإنهم كافرون برغم ادعائهم محبة الله⁽²⁾ .

2- وكذلك في سورة آل عمران ، الآية : 132 «وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ»

(1) العقاد ، عباس محمود ، العبقريات الإسلامية ، ط1 ، دار الكتاب اللبناني ، (بيروت-1974) . 96/1 .

(*) وفد نجران :- وهو وفد نصارى نجران ستون راكباً منهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم منهم ثلاثة يؤول أمرهم إليهم ، منهم العاقب أمير القوم وذو رأيهم . وفدوا على المدينة على الرسول (Δ) فهم يحتجون في قولهم هو الله يحيي ويميت . ويحتجون في قولهم هو ثالث فلما دعاهم الرسول (Δ) للإسلام قالوا أسلمنا فنزل الله بداية سورة آل عمران تكذيباً لهم . ينظر: ابن هشام ، السيرة ، ق1/573-576 ، وقد انفرد بهذه الرواية الطبري ، تفسير ، 232/3 ، ولم يذكرها القرطبي وابن كثير في تفسيرهما . وهي (المباهلة) .

(1) الطبري ، تفسيره ، 232/3 .

وقيل أن سبب نزول هذه الآية معاتبة لأصحاب الرسول (ﷺ) الذين خالفوا أمره يوم أحد فتركوا مراكزهم التي أمرهم بها الرسول وجرى عليهم ما جرى من الضعف والوهن فكان درساً ليتعضوا به في المعارك الأخرى ويجب أيضاً الاتحاد والاتفاق وإطاعة الله وإطاعة رسوله بكل أمر⁽¹⁾ .

3- وفي سورة النساء ، الآية : 59 ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ . . .

ويذكر الطبري⁽²⁾ في رواية عن ابن عباس (رضي الله عنه) ، أولو الأمر هم أولو العلم والفقهاء والدين وقيل هم أصحاب محمد (ﷺ) وقيل هم أولو الدين والعقل والعلم

والرأي والفضل⁽³⁾ ، ويذكر أيضاً أن أولي الأمر هم العلماء والفقهاء والسلطين وتجب طاعتهم فيما يوافق الحق فان تنازعتم أي اختلفتم وتجادلتم فردوا الأمر في ذلك الى كتاب الله والى الرسول (ﷺ) في حياته وسنته بعد مماته⁽⁴⁾ .

في حديث عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن رسول الله (ﷺ) قال : (ثم من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ومن أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصى أميري فقد عصاني)⁽⁵⁾ ، وهذا حديث في الحث على إطاعة أولي الأمر .

(1) المصدر نفسه ، 435/4 ؛ ينظر الطباطبائي ، تفسير الميزان ، 230/4 .

(2) تفسيره ، 152/5 .

(3) مجاهد ، أبو الحجاج مجاهد بن جابر المخزومي ، (ت104هـ) ، تفسير مجاهد ، تحقيق: عبد الرحمن الطاهر محمد ، (بيروت-د.ت) ، ج1 ، ص161 ، أما القرطبي فينفرد في رواية عن ابن عباس أنها نزلت في عبيد الله بن حذافة بن قيس السهمي ، أرسله الرسول في سرية وكان به دعاية وأشعل ناراً وطلب من أصحابه أن يلقوا أنفسهم فيها لان الرسول أمرهم إطاعة أميرهم فرفضوا ذلك وصوب الرسول رأيهم وقال (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق) ؛ القرطبي ، تفسير ، 260/5 .

(4) الواحدي ، علي بن احمد ، (ت468هـ) ، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، ط1 ، تحقيق: صفوان عدنان ، دار القلم ، (دمشق-بيروت-1415هـ) ، ج1 ، ص271 .

(5) مسلم ، مسلم بن الحجاج القشيري ، (ت261هـ) ، صحيح مسلم ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ، دار احياء التراث العربي ، (بيروت-د.ت) ، 1466/3 .

4- سورة النساء ، الآية : 64 ، «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا .

وما نرسل يا محمد رسولا إلا فرضت طاعتهم على من أرسلته إليهم⁽¹⁾ .

5- سورة النساء ، الآية : 69 «وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا .

6- سورة النساء ، الآية : 80 ، «مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا .
أي حافظاً عما يعملون محاسباً⁽²⁾ .

7- سورة المائدة ، الآية : 92 ، «وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّما عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَغُ الْمُبِينُ .

هنا تحذير من عدم إطاعة الرسول وبعباب الآخرة ولا ننسى أن هذه المرحلة مهمة من حياة الأمة والدولة الجديد فنهج بحاجة إلى الوحدة والتكاتف وإطاعة الرسول لأنه قائد الأمة ، سواء كقائد للمجتمع والتغيير أو كقائد سياسي وعسكري⁽³⁾ .

8- سورة الأنفال ، الآية : 20 ، «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ .

9- سورة الأنفال ، الآية : 46 «وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ .

(1) الطبري ، تفسيره ، 159/5 .

(5) المصدر نفسه ، 180/5 .

(3) القرطبي ، التفسير ، 288/5 .

وهذه الآية استمرار في وصيته (ﷺ) للمسلمين على طاعة الرسول وعلى عدم الاختلاف والتنازع لأنه يؤدي إلى ذهاب قوتكم ودولتكم⁽¹⁾ ، ويذكر مجاهد وكان ذهاب ربحكم يوم احد⁽²⁾ .

10- سورة النور ، الآية : 48 ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ ، وهنا يقصد بهم المنافقون معرضون عن قول الحق⁽³⁾ .

11- سورة النور ، الآية : 51 ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ .

12- سورة النور ، الآية : 52 ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ ، وهنا يقصد الفوز بالجنة جزاء طاعتهم .

13- سورة النور ، الآية : 54 ﴿أَقُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ .

14- سورة النور ، الآية : 56 ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ، هنا إعادتها توكيداً أي أطيعوا الرسول بما أمركم ونهاكم⁽⁴⁾ .

15- سورة الأحزاب من الآية : 33 ﴿... وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ .

(1) الماوردي ، علي بن محمد بن حبيب (ت450هـ) ، الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، ط1 ، مطبعة مصطفى البابي وأولاده ، (مصر-1960) ، ص37 .

(2) القرطبي ، تفسيره ، 24/8 .

(3) الطبري ، تفسيره ، 265/6 .

(4) الطبري ، تفسيره ، 157/18 .

وتذكر الروايات أنها نزلت في نساء النبي (Δ) فهذا أمر من الله على لسان نبيه الكريم بأن يقمن الصلاة المفروضة والزكاة الواجبة ، وإن يطعن الله ورسوله في ما أمرهن ونهاهن وإن يلزمن بيوتهن لأنهن ليس كنساء العالمين ، ويضيف القرطبي وابن كثير⁽¹⁾ أن هذه آداب أمر الله بها نساء الرسول ، ونساء الأمة تتبع لهن .

16- سورة الأحزاب ، الآية : 36 ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ .

يقول (⇒) لا يكون لمؤمن أو مؤمنة بالله ورسوله إذا قضى الله ورسوله في أنفسهم قضاء أن يتخيروا من أمرهم غير الذي قضى به الله ورسوله فإن لم يرضوا بذلك جاروا عن قصد السبيل^(*) .

وهذه الآية دليل آخر على سلطة الرسول (Δ) ليس في الأمور السياسية والعسكرية فقط وإنما رعايته للشؤون الاجتماعية التي تهم المسلمين في مجتمع المدينة .

17- سورة محمد ، الآية 33 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ ، هنا أيضاً أمر من الله (⇒) للمؤمنين بلزوم وطاعة أوامر رسوله الكريم في سنته ولا تبطلوا بالمعاصي ، أي أبطال ثواب العمل المفروض ، ونهى الله عن ذلك⁽²⁾ .

18- سورة المجادلة من الآية : 13 ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا دِينَ أَبِي بَكْرٍ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ .

(1) تفسير القرطبي ، 179/14 ؛ تفسير ابن كثير ، 483/3 .

(*) ويذكر المفسرون انها نزلت في زينب بنت جحش حين خطبها رسول الله (Δ) لفتاه زيد بن حارثة ، فامتنعت من انكاحه ؛ الطبري ، تفسيره ، 11/221 ؛ القرطبي ، تفسيره ، 186/14 ؛ ابن كثير ، تفسيره ، 489/3 .

(2) القرطبي ، تفسير ، 254/16 .

19- سورة الحشر من الآية : 7 ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (1) .

20- سورة الحجرات ، الآية : 1 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (2) .

وهنا خطاب وأمر من الله (⇒) لعباده المؤمنين أن لا يتعجلوا بقضاء أمر في حروبهم أو دينهم قبل أن يقضي الله بالوحي على لسان رسوله الكريم ، فتقضوا بخلاف أمر الله ورسوله والمراد به مقام الحكم المشترك بين الله ورسوله تأخذ منه الأحكام الاعتقادية والعملية ، وهنا دليل على أن السلطة التشريعية في المجتمع الإسلامي من الله ورسوله وهذا درس تأديبي للمسلمين في هذا المجتمع بعدم اتخاذ القرارات وإصدار الأحكام دون الرجوع الى السلطة العليا في الدولة والمجتمع والمتمثلة بسلطة الرسول في المدينة يعده حاكماً اختاره (⇒) لحكم ورعاية مصالح المسلمين في المجتمع والأمة .

21- سورة التغابن ، الآية : 12 ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ .
وهنا أيضاً تأكيد منه (⇒) بضرورة إطاعة الله والرسول لكي يستقيم أمركم في شأن دينكم ودنياكم فان أعرضتم عن ذلك فما على رسولنا محمد (Δ) ، أي ما أبلغكم به من أمري والله ولي الانتقام (3) .

(1) المعنى ، أي ما أعطاكم الرسول (Δ) من مال الغنيمة ، وفي رواية أخرى عن السدي : من أموال الفبيء فخذوه وما نهاكم عنه من الأخذ والغلول فانتهوا ، حيث جعل (⇒) نصيب لعدة أصناف من ذوي القربى واليتامى وأهل الحاجة مما آفاه الله به على رسوله . ينظر: القرطبي ، تفسيره ، 17/18 .
(2) بين يدي الشيء : أمامه وهو استعمال شائع مجازي واستعاري استخدمه العرب بمعنى الأمر والنهي دونه . ينظر: الطبري ، تفسيره ، 126/26 ؛ الطباطبائي ، الميزان ، 332/18 ؛ لابوم ، جول ، تفصيل آيات القرآن الكريم ، ط2 ، ترجمة محمد فؤاد عبد الباقي ، مطبعة البابي (مصر - د.ت) ، ص 32 .

(3) الطبري ، تفسير ، 124/28 .

وهذه الآيات بمجموعها تشكل براهين واضحة على أن الرسول الكريم (ﷺ) كان يحكم بتفويض من الله وأمره كونه نبياً مطاعاً بإذن الله ، ومن هنا فان سلطات الرسول (ﷺ) كانت سلطات واسعة شملت كل جوانب الحياة في الدولة والمجتمع والأمة الإسلامية المصغرة التي كانت نواة للمجتمع الإسلامي وقد اعتمد الرسول (ﷺ) في حكمه على القرآن الكريم ومبدء الشورى وأصبح هذان المبدءان فيما بعد أساس لنظام الحكم الإسلامي في الدولة العربية الإسلامية .

القرآن الكريم :-

هو كلام الله الذي انزله على رسوله الكريم محمد (ﷺ) عن طريق الوحي وهو القانون الإلهي ودستور الأمة والدولة الإسلامية ومصدر تشريعها الأول ، وهو آخر الكتب المنزلة من السماء⁽¹⁾ كما في قوله تعالى : ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾⁽²⁾ .

أي إن الله (ﷻ) انزل هذا القرآن على نبيه محمد (ﷺ) بالصدق لا شك فيه ، اميناً وحاكماً وشاهداً على الكتب السماوية التي سبقته ، فاحكم يا محمد بين الناس عربهم وعجمهم أميهم وكتابيهم بما انزل الله إليك حكمه في القرآن الكريم فما كان من حكم الأنبياء السابقين لم ينسخه في شرعك ، ويقصد بـ(شرعة ومنهاجاً) هما

(1) محمد جلال شرف ، الفكر السياسي ، ص 66 .

(2) سورة المائدة ، الآية : 48 ، وهي من السور المدنية التي نزلت على الرسول الكريم في المدينة بعد

الهجرة الى المدينة ؛ الزنجاني ، تأريخ القرآن ، ص 111 .

طريقان واضحا أمرنا بالاستقامة عليها فالشرع هو الإبانة والله هو المشرع لعباده ولا يشرع نبي إلا بأمر الله تعالى فان شرع النبي هو شرع الله⁽¹⁾ .

وقد اشتمل القرآن الكريم على الأحكام الأساسية لنظام الحكم في الدولة والمجتمع ، فعرض لعلاقة الفرد بإخوانه في الأيمان تارة وإخوانه في الإنسانية تارة أخرى وكذلك عرض علاقة الفرد بأسرته وأقاربه والعلاقة بين المرأة والرجل والزواج والطلاق وما حله الشرع وما حرمه وصلة الجوار والتراحم ، مما يجعل الأمة الإسلامية المصغرة امة واحدة وكذلك عرض علاقة الحاكم بالأمة عامة كمجتمع وبالأفراد خاصة ، وكذلك عرض علاقة هذه الأمة بالأمم الأخرى في حالتها السلم والحرب⁽²⁾ ، وكذلك نرى أن السور المدنية التي نزلت على رسوله الكريم في المدينة تحمل في مضمونها التشريعات الضرورية لبناء الدولة والمجتمع وتنظيم جميع جوانبه لما فيه خير وصالح الأمة .

الشورى في دولة الرسول (Δ) :

تعد الشورى الركيزة الثانية التي قام عليها نظام الحكم في الإسلام ، واعتمد عليها الرسول (Δ) في حكمه وإدارته لشؤون الدولة والمجتمع مما لا يضع مجالاً للشك من إن حكم الرسول كان ديمقراطياً بحيث لا يستبد الحاكم أيما كانت سلطاته وصلاحياته برأية ولا يقطع بأمر إلا بعد استشارة ذوي الخبرة والرأي لما فيه خير ومصلحة الدولة والأمة ، والشورى في اللغة لها اشتقاقات ومعاني كثيرة كما جاء في معجم العين⁽³⁾ فاصلها (شَوَّرَ) والمشار المجتبى للعسل ، والشورة الموضع الذي تعسل فيه النحل ، والشار الهيئة الحسنة والمشورة مفعلة من الإشارة مثل أشرت عليهم بكذا ويقال مشورة ، وأشار عليه أي أمره به ، وهي الشورة والمشورة ،

(1) الازهري ، الزاهر ، 420/1 ؛ مجاهد ، تفسير مجاهد ، 198/1 .

(2) عرجون ، الموسوعة ، ص 562 .

(3) الفراهيدي ، ابو عبد الرحمن خليل بن احمد (ت175هـ) ، تحقيق: د.مهدي المخزومي ، (د.م- د.ت) ،

280/6 ، باب الشين والراء .

ومفهوم الشورى يعتمد على المشاورة⁽¹⁾ ، وهي وسيلة لتفاعل وتلاحم الآراء المختلفة من اجل الوصول الى أفضل الآراء⁽²⁾ ، والشورى ليست مبدأ جديداً على العرب فقد اتصف العرب في الجاهلية والإسلام برجاحة العقل والتسامح وعدم الاستبداد بالرأي لأنهم كانوا يميلون الى التشاور في امورهم ويعمدون إلى المفاوضات والتحكيم في مشاكلهم ، فسعوا بذلك الى تحاشي الحروب وتلافي آثارها وفرض الخصومات التي تقع بين القبائل بسبب التنافس على السيادة أو التنازع على موارد المياه ومنابت الكلاً أو في سباق الخيل وكذلك فض المنازعات التي تحدث نتيجة المنافسة في سوق عكاظ وغيرها .

وحكومة الرسول (ﷺ) لم تكن حكومة دينية فحسب بل وسياسية أيضاً حيث جمع الرسول الكريم بيده السلطتين الدينية والسياسية فضلاً عن أن الرسول كان يمارس سلطته بوحي من ربه ولكنه لم يهمل مبدأ الشورى لما لهذا المبدأ من أهمية كبيرة في إدارة الدولة والمجتمع ، ويذكر الطبري⁽³⁾ أن الله أمر نبيه (ﷺ) أن يشاور أصحابه في الأمور وهو يأتيه الوحي من السماء ، لأنه أطيب لأنفسهم ولتريهم انك تسمع منهم وتستعين بهم وان كنت غنياً عنهم لتؤلفهم عليه ، وتبين له الرأي ، وأفضل الأمور في التدبير ، ولما عِلِمَ (ﷺ) ما للمشورة من فضل⁽⁴⁾ .

ولكي يتبعه المؤمنون من بعده فيما حزبهم من أمر دينهم وليستنوا بسنته من بعده⁽⁵⁾ ، وخاصة الحكام إذا انزل بالحاكم أمر يحتمل وجوهاً ، ويجب أن يشاور من جمع العلم والأمانة⁽⁶⁾ .

(1) ابن منظور ، لسان العرب ، 437/4 .

(2) الملاح ، هاشم يحيى ، بحث في مكانة الشورى في سياسة وأداء الدولة ، ندوة النظم الإسلامية ،

مكتب التربية العربي لدول الخليج ، (أبو ظبي-1984) ، ج1 ، ص15 .

(3) تفسير الطبري ، 496/4 .

(4) الطبري ، تفسيره ، 496/4 ؛ ابن كثير ، تفسيره ، 118/4 .

(5) الطبري ، تفسيره ، 496/4 .

(6) الشافعي ، أبو عبد الله محمد بن إدريس ، (ت204هـ) ، كتاب ألام ، ط2 ، دار المعرفة ،

(بيروت-1393هـ) ، ج7 ، ص95 .

إذن تلك هي الحكمة من أمره (⇒) رسوله الكريم بالعمل بمبدء الشورى وأول آية نزلت على رسوله الكريم فيها أمر الشورى ، هي قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (1) .

أما في المدينة فأول آية نزلت على الرسول (△) تؤكد مبدأ الشورى قوله تعالى : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (2) .

والآية تصور خلق الرسول وحسن تعامله مع المسلمين ، وجاء ذكر الشورى في هذه الآية مترابطاً مع الاستجابة لله والأيمان به وإقامة الصلاة ، لذلك فإن منزلة الشورى جليلة وعظيمة ومهمة ، لكي يستطيع الحاكم مشورة جماعته سواء كان ذلك الرأي له أم عليه حتى لو اختلفت الآراء عند المشورة ليس بفرقة ما دام الأمر النهائي سيكون للحاكم ، وقد سار الرسول الكريم على هذا المبدأ وطبقه طوال حياته فقد كان كثير المشاورة لأصحابه ، فالأمور التي ينزل بها الوحي خصوصاً ما يتعلق بالأحكام والعبادات كانت أموراً قاطعة ليس بها مشورة لأنها حكم الله ، أما الأمور التوفيقية مثل أموراً الحرب والمكيدة والأمور السياسية والاجتماعية فكان يشاور بها أصحابه وكان كثيراً ما يقول (أشيروا عليّ أيها الناس) (3) ، فلقد كان النبي (△) يجتمع مع أصحابه من ذوي الخبرة والرأي ويأخذ بآرائهم ، ومن هؤلاء الصحابة عمر وعلي وابن مسعود وزيد بن ثابت وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل (4) وأبو بكر وعامر وأبو ذر والمقداد وبلال (▲) وغيرهم (5) ، وكان من آداب هذه المجالس الاستشارية

(1) سورة الشورى ، الآية : 38 ، وهي من السور المكية التي نزلت على الرسول الكريم في مكة قبل

الهجرة ؛ الطبري ، تفسير ، 25/6 ؛ ابن النديم ، الفهرست ، ص 37-38 .

(2) سورة آل عمران ، الآية : 159 .

(3) القرطبي ، تفسير ، 374/7 ؛ حسن إبراهيم ، النظم الإسلامية ، ص 194 .

(4) ابن سعد ، الطبقات ، 350/2 .

(5) حسن إبراهيم ، النظم الإسلامية ، 194 .

أن لا يغادر المجتمعون مجلس الرسول (ﷺ) من دون استئذان وكان للنبي أن يأذن لهم أو لا يأذن⁽¹⁾ ، كما ورد في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ (2) .

وأمثلة التاريخ كثيرة على قوة مبدء الشورى وحرية الرأي ، ففي السنة الثانية من الهجرة عندما نزل المسلمون على أول ماء من بدر استعداداً لحرب قريش ، جاء الخباب بن المنذر بن الجموح الى رسول الله قائلاً : يا رسول الله أ رأيت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله ، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ قال : هو الرأي والحرب والمكيدة . قال : يا رسول الله فان هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فتنزله ثم تمور ما وراءه من القلب ثم تبني عليه حوضاً ، فتملؤه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون . فقال له : (لقد أشرت بالرأي) (3) .

ومثلها كانت مشورة سعد بن معاذ على الرسول (ﷺ) ببناء عريش له قبل بدء المعركة⁽⁴⁾ ، وكذلك مشاورته للمسلمين يوم استعداده لمعركة احد وتخيرهم بين البقاء في المدينة أو الخروج منها ، وقد انقسم المشاورون الى فريقين وكان رأي الشيوخ من ذوي التجربة البقاء في المدينة والاستفادة من تحصيناتها أما الفريق الثاني اكثرهم من الشباب المتحمسين فقد أشاروا بالخروج من المدينة لملاقاة

(1) جلال الحنفي ، الشيخ جلال البغدادي ، شخصية الرسول الأعظم قرآنيّاً ، مؤسسة المدرسة البغدادية في العروض والتجويد والسيرة ، ط1 ، (بغداد - 1997) ، ص77 .

(2) سورة النور ، الآية : 62 .

(3) ابن هشام ، السيرة ، ق1/260 ؛ الطبري ، تاريخ ، 2/440 .

(4) ابن هشام ، السيرة ، ق1/260 .

الأعداء⁽¹⁾ ، لكن رسول الله (ﷺ) اضطر الى الأخذ برأي الأكثرية من الفريق الثاني مع اقتناعه بالرأي الأول ، وكذلك مشاورته في مصالحة الأحزاب على ثلث ثمار المدينة ، فأبى عليه سعد بن معاذ وسعد بن عباد ، فترك ذلك وأخذ برأيهم⁽²⁾ وحين شاور المسلمون يوم الحديبية بالميل على ذراري المشركين ، أجاب أبو بكر (﷓) قائلاً : (إنا لم نجيء لقتال وإنما جئنا معتمرين فأجابهم الرسول الى ما قال)⁽³⁾ ، والأخبار والأمثلة كثيرة في سيرة الرسول (ﷺ) لا يمكن حصرها .

ويذكر أبو هريرة (﷓) قائلاً : (ما رأيت أحداً أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله (ﷺ))⁽⁴⁾ .

وحين سئل الرسول (ﷺ) عن الحزم قال : (أن تستشير الرجل ذا الرأي ثم يقطع أمره)⁽⁵⁾ ، وكان يأخذ برأي مشاوريه حتى لو كان خلاف رأيه ، فهكذا كان محمد (ﷺ) رئيس الدولة والأمة في تبسطه وتواضعه وعدم استبداده بالرأي وفي ذلك خاطب (ﷺ) رسوله في القرآن الكريم : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ...﴾⁽⁶⁾ .

ولم تقتصر مشورة الرسول (ﷺ) الصحابة في الأمور العامة وأمور الدولة وإنما كان يستشيرهم في أموره الخاصة أيضاً .

(1) المصدر نفسه ، ق1/260

(2) المصدر نفسه ، ق2/223 .

(3) ابن كثير ، تفسيره ، 1/420 .

(4) البيهقي ، احمد بن الحسين بن علي ، (ت458هـ) ، سنن البيهقي الكبرى ، تحقيق: محمد عبد القادر ، عطارة مكتبة دار الباز ، (مكة-1494هـ) ، ج10 ، ص109 .

(5) المزني ، يوسف بن الزكي عبد الرحمن ، (ت742هـ) ، تهذيب الكمال ، ط1 ، تحقيق: د. بشار عواد معروف ، مؤسسة الرسالة ، (بيروت-1980) ، ج15 ، ص206 .

(6) سورة آل عمران ، الآية : 159 .

وقد أشار إلى ذلك في حديثه (△) : (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى سائر الجسد بالسهر والحمى) (1) والشورى هي خلق الرسول محمد (△) بعثه الله بها ، ولكن المستشرق مونجموري وات (2) قد جاء برأي غريب حول مشورة الرسول للأنصار بعد حديث الإفك واتهم الرسول بالضعف ، وعدم قدرته التعرض لأبن أبي بن سلول ، لهذا جمع الأنصار ليحصل على الإذن بملاحقته بسبب ضعف سلطة الرسول (△) في ذلك الوقت . ولا ننسى أن حادث الإفك حدث جل وليس بالهين اتهمت به السيدة عائشة أم المؤمنين وهي زوجة النبي (△) وهو رئيس الدولة ، وكذلك رمي به صحابي جليل مؤمن بالله وبالرسول وقتل شهيداً ، وكان وجوده في غزوة بني المصطلق لمهمة جهادية على ساقاة الجيش (3) .

وان الذي اتهم أم المؤمنين عائشة بالإفك هو رأس النفاق في المدينة عبد الله بن أبي بن سلول الذي امتلأ قلبه حقداً وكرهاً وضغينة على الإسلام ونبيه (4) ، والذي زاد الأمر سوءاً انقطاع نزول الوحي على النبي لمدة شهر وهي مدة طويلة في مثل هذه الظروف وهو كان ينتظر نزول الوحي لحسم الموقف ، فلما تأخر الوحي وكأجراء سريع عرض الأمر على الصحابة من المهاجرين والأنصار (5) ، ولا ننسى أن زوجات الرسول هن أمهات المؤمنين والنبي ليس شخص عادي فهو نبي هذه الأمة ورئيس الدولة الجديدة في المدينة ، فالمسلمون هم أحق بالرد على العصابة التي

(1) مسلم ، صحيح مسلم ، 4/1999 ، باب تراحم المؤمنين ؛ البيهقي ، سنن البيهقي ، 3/353 ؛ ابن حجر العسقلاني ، احمد بن علي (ت852هـ) ، فتح الباري في شرح صحيح البخاري ، تحقيق: فؤاد عبد الباقي ، دار المعرفة ، (بيروت-1379هـ) ، ج10 ، ص439 .

(2) محمد في المدينة ، تعريب : شعبان بركات ، المكتبة العصرية ، (بيروت-1952) ، ص348 .

(3) ابن هشام ، السيرة ، ق2/298 ؛ الحلبوسي ، عبد الله خلف حمد ، المنافقون في عصر الرسالة ، وهي رسالة ماجستير غير منشورة - مقدمة إلى جامعة بغداد- كلية الآداب ، (بغداد-1996) ، ص 140-145 .

(4) ابن كثير ، تفسيره ، 3 / 265 ؛ ابن حجر العسقلاني ، أبو الفضل احمد بن علي ، (ت852هـ) ؛ تعجيل المنفعة ، ط1 ، تحقيق: أكرم الله ، دار الكتاب العربي ، (بيروت- د.ت) ، ج1 ، ص189 .

(5) ابن سعد ، الطبقات ، 1 / 68-69 .

جاءت بالإفك ، وان عرض هذا الأمر على الأنصار لان زعيم عصابة الإفك هو احد زعماء الخزرج فخشي أن تحدث فتنة في المجتمع الإسلامي بين الاوس والخزرج فكان تصرفه تصرف الحكيم لا الضعيف .

القضاء والسلطة القضائية :

كان للعرب قبل الإسلام حكام ترجع إليها في أمورهم وتتحاكم في مناضراتها وموارثها ومياهاها ودمائها لأنه لم يكن لهم دين يرجع إلى شرائعه ، فكانوا يحكمون أهل الشرف والصدق والأمانة والرئاسة والسن والجد والتجربة⁽¹⁾ ، وقد جاءت جملة من أحكام العرب في الجاهلية موافقة لما جاءت بها الشريعة الإسلامية منها :-

1- عقاب السارق: حيث حكمت العرب قبل الإسلام بقطع اليد وأول من سن ذلك الوليد بن المغيرة وعبد المطلب⁽²⁾ .

2- تحريم الخمر: وقد حكم به جملة من حكام العرب قبل الإسلام منهم الوليد بن المغيرة وعبد المطلب وكذلك حكموا بالمنع من نكاح المحرمات والنهي عن قتل المؤودة وتحريم الزنى وان لا يطوف إنسان بالبيت عريان⁽³⁾ ، وقد جاءت في القرآن ما يحرم كل ذلك كما في قوله تعالى :-

1- «وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً
بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ»⁽⁴⁾ .

(1) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، 2 / 224-228 .

(2) الالوسي ، محمود شكري ، بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب ، ط3 ، تحقيق: محمد بهجة الأثري ، مطابع دار الكتاب العربي ، (القاهرة-1342هـ) ، ج1 ، ص324 ؛ جواد علي ، المفصل ، 5/651-652 .

(3) ابن حبيب ، محمد بن حبيب البغدادي ، (ت245هـ) ، المحبر ، اعتنى بتصحيحه الدكتورة ايلزة ليختن شنتير ، دار الآفاق الجديد ، (بيروت- د.ت) ، ص236-237 .

(4) سورة المائدة ، الآية : 38 .

2- «إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» (1).

3- «وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتَرًا وَسَاءَ سَبِيلًا ، حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ...» (2).

4- «وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ ، بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ» (3).

5- «الرَّانِيَةُ وَالرَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...» (4).

6- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا...» (5).

3- التوريت : أول من ورث ماله لولده قبل الإسلام للذكر مثل حظ الأنثيين فوافق بذلك حكم الشريعة عامر بن جشم بن غنم بن حبيب بن كعب بن يشكر (6).

(1) سورة المائدة ، من الآية : 90 .

(2) سورة النساء ، من الآية : 22-23 .

(3) سورة التكوين ، الآية : 8-9 .

(4) سورة النور ، من الآية : 2 .

(5) سورة التوبة ، من الآية : 28 .

(6) ابن حزم ، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الاندلسي ، (ت456هـ) ، جمهرة انساب العرب ، تحقيق:

عبد السلام محمد هارون ، دار المعارف ، (مصر-1962) ، ص 308 .

كما في قوله تعالى : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ

حَظِّ الْإُنثَىٰ ۚ لِلَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهِمْ وَنَسَبِهِمْ حَظٌّ مِّمَّا لِلَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهِمْ وَنَسَبِهِمْ ۚ﴾ (1).

ويذكر ابن قتيبة⁽²⁾ ، أن أول من سن الدية مائة من الإبل (أبو سيارة العدوانى) ويقال أن أول من سن ذلك عبد المطلب فأخذت به قريش والعرب وأقره رسول الله (ﷺ) في الإسلام ، الدية التي حكم بها العرب قبل الإسلام جاء بها حكم الإسلام فقد جاء في القرآن : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ ۖ﴾ (3).

4- القرعة التي حكم بها العرب قبل الإسلام ، كانوا يعتمدون عليها في أحكامهم قد ورد ذكرها في القرآن الكريم إذ يقول : ﴿وَإِنْ يُوْنُسَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ ، إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ، فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ (4) ، أي قارع فكان من المغلوبين إذ قرع فوقعت عليه القرعة⁽⁵⁾ .

وقضى رسول الله (ﷺ) بالقرعة لما روي عن عائشة (رضي الله عنها) قولها ان النبي كان إذا أراد سفر أقرع بين نسائه فإيتهن خرج سهمها خرج بها معه⁽⁶⁾ .

5- القيافة التي مارسها العرب قبل الإسلام كطريقة من طرق إثبات الوقائع عندهم واشتهروا بها في إثبات النسب أو الاستدلال على اثر الجاني قضى بها رسول الله (ﷺ) وجعلها دليلاً على ثبوت النسب ، فقد روي أن هلال بن أمية اتهمت امرأته بشريك بن سمحاء فقال رسول الله (ﷺ) : (أبعدوها فأن

(1) سورة النساء ، من الآية : 11 .

(2) المعارف ، ص 551 .

(3) سورة النساء ، من الآية : 92 .

(4) سورة الصافات ، الآية : 139-141 .

(5) ابن كثير ، تفسيره ، 4 / 20 .

(6) ابن هشام ، السيرة ، ق 2/297 .

جاءت به ابيضاً سبطاً وضيء العينين فهو لَهلال بن أمية وان جاءت بن
أكل جعداً حمش الساقين فهو لشريك بن سمحاء (1) .

أما السلطة القضائية في دولة المدينة في عصر رسول الله (ﷺ) ، بالإضافة
إلى كونه رئيساً لحكومة المدينة فقد كان قاضياً أيضاً ، حيث تركزت بيده السلطات
القضائية والتنفيذية من أجل إرساء قواعد العدل والمساواة في المجتمع والدولة ولكي
يعم الأمن والاستقرار فيهما ، كما جاء في القرآن الكريم حول القضاء

ومشروعيته : ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ
فَاخْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ
سَبِيلِ اللَّهِ﴾ . (2)

كان النبي (ﷺ) أول قاضٍ للمسلمين ، وأول معلم لهم في القضاء وكان
قضاء الرسول (ﷺ) واللجوء إليه عند حدوث خلاف ونزاع بين المسلمين بأمره (ﷺ)
كما جاء في قوله تعالى :-

1- ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا
وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ
نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ . (3)

2- ﴿... فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ
وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ
خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (4) .

وكان الرسول (ﷺ) يحكم بين الناس بنص القرآن ويهدي وبالهام منه (ﷺ)
كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ
لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ (5) .

وهو يخاطب فيه (ﷺ) النبي (ﷺ) ليقضي بين الناس بالقرآن الكريم بما أراك

(1) البخاري ، صحيح ، 10 / 128 .

(2) سورة ص ، من الآية : 26 .

(3) سورة النساء ، من الآية : 58 .

(4) سورة النساء ، الآية : 59 .

(5) سورة النساء ، من الآية : 105 .

يعني بما انزل الله إليك من كتابه (1) .

وفي رواية أن رسول الله سمع خصومة بباب حجرته فخرج إليهم فقال :-
إنما أنا بشر وانه يأتيني الخصم فلعن بعضكم ابلغ من بعض فاحسب انه صدق
فاقضي له بذلك فمن قضيت له بحق مسلم هي قطعة من النار فليأخذها أو
فليتركها (2) .

وكذلك في قوله تعالى : «فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى
يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ
حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا» (3) ، أي بمعنى إن الإيمان
الحقيقي بالله ورسوله حقاً هو في الأحكام إلى رسول الله (ﷺ) فيما اختلط عليهم في
أمورهم فالتبس عليهم حكمه ، ولا يجدوا من حكم الرسول ضيقاً أو عدم رضى (4) ،
وهناك أحاديث كثيرة تشير إلى منصب القضاء ومشروعيته منها ما روي عنه (ﷺ)
قوله : (إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد فإخطأ فله
اجر) (5) . وروي عنه أيضاً قوله : (القضاة ثلاثة ، واحد في الجنة واثنان في النار
والذي في الجنة كرجل عرف الحق ف قضى به ، ورجل عرف الحق فجار في الحكم
فهو في النار ، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار) (6) .

أما في الواقع العملي فقد حكم الرسول بأحكام قضائية حول بعض الجرائم
التي حدثت في المدينة منها ما روي عن أم سلمة (رضي الله عنها) قولها : اختصم

(1) الطبري ، تفسيره ، 106/6-105/6 .

(2) البخاري ، صحيح ، 867/2 ؛ القالي ، إسماعيل بن القاسم البغدادي ، (ت - 356هـ) كتاب الامالي ،
المكتب التجاري للطباعة والنشر ، (بيروت - د.ت) ، 5/1 ، مادة (لحن) .

(3) سورة النساء ، الآية : 65 .

(4) الطبري ، تفسيره ، 160/5 .

(5) مسلم ، صحيح ، 131/5 .

(6) ابن ماجه ، محمد بن يزيد القزويني ، (ت 275هـ) ، سنن ابن ماجه ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ،
دار الفكر ، (بيروت - د.ت) ، 776/2 .

إلى رسول الله رجلان من الأنصار في مواريث متقدمة ففضى رسول الله (ﷺ) في بيتي (1) .

ولفرط عدله وحسن قضائه كان يلجأ إليه من غير المسلمين (اليهود) في المدينة ليقضي بينهم (2) ، كما في قوله تعالى : «وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ» (3) .

حيث كان أهل الكتاب رغم ادعائهم أن في التوراة حكم الله يحتكمون إليه فإنهم كانوا يراجعون النبي ويسألونه الحكم بينه ، وفي رواية عن ابن عباس قال : - (إن الرسول مخير إن شاء حكم في أهل الكتاب وإن شاء اعرض) (4) .

وروي عن انس بن مالك أن يهودياً رضى رأس جارية بين حجرين فجاء بها إلى رسول الله (ﷺ) وبها رمق ، فقال لها رسول الله (ﷺ) أقتلك فلان فأشارت برأسها أن لا ، ثم قال الثانية : فأشارت برأسها أن لا ، ثم سألتها الثالثة فأشارت برأسها ، انه نعم فجاء باليهودي فلم يزل به حتى أمر فرض رسول الله (ﷺ) رأسه بالحجر (5) .

وفي رواية عن أبي هريرة (رضي الله عنه) (ﷺ) حبس النبي (ﷺ) في التهمة حبساً يسيراً حتى استبرأ (6) ، ومن الآيات التي ورد فيها القضاء ومشروعيته أيضاً قوله تعالى :
1- «وَأَنْ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ...» (7) .

(1) البخاري ، صحيح ، 176/13 .

(2) ابن كثير ، تفسيره ، 66-65/2 .

(3) سورة المائدة ، الآية : 43 .

(4) ينظر ابن كثير ، تفسيره ، 66-65/2 .

(5) البخاري ، صحيح ، 176/13 .

(6) ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم ، (ت276هـ) ، عيون الأخبار ، المؤسسة المصرية العامة ،

(مصر - د.ت) ، 272/1 .

(7) سورة المائدة ، من الآية : 49 .

2- «أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ» (1) .

3- «وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ» (2) .

وفي بعض الآيات وردت تعابير الشهود والشهادة والاستشهاد وهي من مستلزمات القضاء بين الناس وحفظ حقوقهم (3) . كما جاء في قوله تعالى :-

1- «وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكَمْ أَفْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَاقُومُوا لِلشَّهَادَةِ...» (4) .

2- «وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ...» (5) .

3- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا...» (6) .

وقد عهد الرسول (ﷺ) لبعض الصحابة في القضاء بين الناس في حياته كعمر ابن الخطاب وعلي بن أبي طالب ومعاذ بن جبل وعتاب بن أسيد (7) ، وكان له أثر كبير في توجيههم ، وقد أرسل رسول الله (ﷺ) معاذاً قاضياً على اليمن

(1) سورة المائدة ، الآية : 50 .

(2) سورة النور ، الآية : 48 .

(3) دروزة ، عصر النبي، ص 224-225 .

(4) سورة البقرة ، من الآية : 282 .

(5) سورة البقرة ، من الآية : 283 .

(6) سورة النساء ، من الآية : 135 ؛ سورة المائدة : الآية 106-108 ؛ وسورة الطلاق ، الآية : 2 ،

وهذه الآيات تعطي نفس المعنى

(7) ابن سعد ، الطبقات ، 350/2 .

وقال له كيف تقضي قال :- اقضي بكتاب الله قال : فان لم تجد قال : اقضي بسنة رسول الله (ﷺ) قال فان لم تجد في كتاب الله ولا في سنة رسول الله قال : اجتهد ولا ألوا قال فضرب رسول (ﷺ) صدر معاذ وقال :- الحمد لله الذي وفق رسول الله لما رضي الله في ذلك⁽¹⁾ ، وكان عمر بن الخطاب (ﷺ) يقول: (علي ومعاذ بن جبل أقضانا)⁽²⁾ .

الجهاز الإداري لدولة المدينة في عصر الرسول (ﷺ) :-

وضع الرسول (ﷺ) الدعائم الأولى لدولة المدينة والتي أصبحت فيما بعد قاعدة للدولة الإسلامية الكبرى ، ووضع دستوراً للمدينة ، فدولة المدينة كانت ملائمة تماماً لزمانه وعصره بل إنها كانت جامعة وشاملة ووافية لحاجات المجتمع آنذاك لكي تسهل عليه إدارة شؤون الدولة وإدماج القبائل بالتنظيم الإداري للدولة ولتسهيل الاتصال بها وتنظيم شؤونها ، حيث كان رسول الله (ﷺ) يُعِين على كل قبيلة تعلن إسلامها رجلاً من وفدها وغالباً ما يكون شيخها أو احد رؤسائها وذلك مراعاةً لنفور القبائل العربية من تعيين حاكم عليها من غير أبنائها⁽³⁾ ، وعملاً بالقاعدة التي اتبعها (خيارهم في الجاهلية ، خيرهم في الإسلام إذا فقهوا)⁽⁴⁾ وكان في بعض الأحيان يسند إليه مهمة جباية الأموال وما فرض على المسلمين من صدقة

وكان الرسول حريص على ضبط الأمور في المدينة حتى في حالاً خروجه منها في الغزوات فكان كثيراً ما يختار احد الثقات من الصحابة ، فيستخلفه على

(1) أبو داود ، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي ، (ت275هـ) ، سنن أبو داود ، تحقيق : محمد

محي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، (د.م- د.ت) ، 303/3 .

(2) ابن سعد ، الطبقات ، 338/2-339 ؛ الخطيب ، أبي العباس احمد بن احمد ، وسيلة الإسلام بالنبي

عليه الصلاة والسلام ، ط1 ، تحقيق: سليمان الصيد ، دار الغرب الإسلامي ، (بيروت-1984) ،

ج1 ، ص79 .

(3) الشريف ، مكة والمدينة ، ص25 .

(4) البخاري ، صحيح ، 1224/3 .

وكانت تحيط بالرسول مجموعة من الصحابة من أهل العلم والفتوى والدراسة منهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل^(*) (▲) .

وقد اهتم رسول الله (ﷺ) بالعلم والتفقه بعلوم القرآن الكريم فكان الرسول معلماً وهادياً وبشيراً ومثال ذلك إرساله عمار بن ياسر إلى المدينة قبل الهجرة ليقرأ

60

الأنصار القرآن الكريم ، وجعل الرسول(Δ) فداء أسرى معركة بدر من قريش ممن لا طاقة لهم بدفع الفدية هو تعليم عشرة من صبيان المسلمين الكتابة(1) .

وقد اتخذ الرسول(Δ) الحرس ، وكان بعضهم مقيماً في مسجد المدينة من أهل الصفة(*) وهم فقراء المسلمين الذين لم تكن عندهم غوائل هذا فضلاً عن بعض الصحابة الذين كانوا يتطوعون لهذا العمل منهم عمر بن الخطاب (◀) وسعد بن أبي وقاص(▶) وغيرهم(2) ، حتى انزل قوله تعالى : «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ»(3) ، فكفوا عن حراسته ، وكان هناك أيضاً حرس يحرسون المدينة ومعسكر جيش المسلمين(4) ، وقد وضع الرسول (Δ) أسس الرقابة في الدولة على عمالها وولاتها على شكل توجيهات وتوصيات لهؤلاء ففي رواية عن أبي حميد الساعدي قال استعمل رسول الله (Δ) رجلاً من الازد يقال له بن اللتيبة على الصدقة فلما قدم قال : هذا لكم وهذا لي اهدي لي قال : فقام رسول الله (Δ) على المنبر فحمد الله واثنى عليه وقال :- (ما بال عامل ابغته فيقول هذا لكم وهذا اهدي لي أفلا قعد في بيت أبيه أو في بيت أمه حتى ينظر يهدي إليه أم لا والذي نفس محمد بيده لا ينال احد منكم شيئاً إلا جاء به يوم القيام يحمله على عنقه بغير له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة
تعر . . .) (5) .

وقد اتخذ هذا الحديث وغيره قاعدة للمسلمين فيما بعد يعمدون عليه في قبول الحاكم للهدية بأنها رشوة ، وقد عين رسول الله (Δ) ولاية المسلمين وقد خصص

(1) ابن سعد ، الطبقات ، 350/2-352 .

(*) أهل الصفة سنتحدث عنهم في موضوع بناء المسجد إن شاء الله ص 63 .

(2) ابن سعد ، الطبقات ، 22/2 .

(3) سورة المائدة ، الآية : 67 .

(4) ابن حبيب ، المحبر ، ص258 ؛ ابن شبة ، تأريخ المدينة ، 181/1 .

(5) مسلم ، صحيح ، 1463/3 .

لهم ما يكفيهم من المال ومثال ذلك عند فتح مكة استعمل عتاب بن أسيد بن أبي العيص ابن أمية وكان قد دخل في الإسلام بعد فتح مكة وذلك لتأليف قلوب أهل مكة حوله لأنه من الأسر ذات الشرف والقوة في بني أمية وليؤلف قلبه على الإسلام⁽¹⁾ ، وكان للرسول (ﷺ) عيون في السرايا والغزوات⁽²⁾ .

لقد اهتمت حكومة الرسول (ﷺ) بالشؤون الخارجية للدولة كأهتمامها بالشؤون الداخلية ، وكان أهمها إنشاء الديوان^(*) حيث كان الرسول (ﷺ) يكتب الأمراء ، وأصحاب السرايا من الصحابة ، ويكتبونه وكذلك كتب إلى من قرب من ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام وبعث إليهم رسله بكتبه بعد صلح الحديبية في السنة السادسة للهجرة لإكمال نشر دعوته إلى الناس كافة ليظهره على الدين كله كما في جاء في قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾⁽³⁾ ،

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا...﴾⁽⁴⁾ .

وكان هؤلاء الرسل بمثابة سفراء ممثلين عن الرسول (ﷺ) في الدعوة للإسلام فبعث رسله إلى النجاشي ملك الحبشة والمقوقس حاكم الإسكندرية وإلى كسرى ملك الفرس وقيصر ملك الروم وإلى أمراء ومشايخ اليمن وعمان واليمامة ، وغيرهم⁽⁵⁾ .

(1) ابن هشام ، السيرة ، ق/2/500 .

(2) ابن حبيب ، المحبر ، ص/258 .

(*) وهو ديوان الانشاء : وهو أول ديوان في الإسلام . ينظر : القلقشندي ، صبح الأعشى ، 1/91 .

(3) سورة التوبة ، من الآية : 33 .

(4) سورة سبأ ، من الآية : 28 .

(5) ابن هشام ، السيرة ، ق/2/606-607 ؛ ابن سعد ، الطبقات ، 1/258 ، وقد ذكر ست سفراء

فقط ؛ حميد الله ، محمد ، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، ط3 ،

(بيروت-1969) ، ص/80-82 .

لذلك فقد احتاج الرسول (ﷺ) إلى مجموعة من الكتاب ممن يجيدون القراءة والكتابة وربما بعض المترجمين ، فقد روي عن زيد بن ثابت (*) أن رسول الله (ﷺ) قال له :- انه يأتييني كتب من أناس لا أحب أن يقرأها احد فهل تستطيع أن تتعلم العبرانية أو السريانية يقول زيد فقلت له نعم فتعلمتها في سبع عشرة ليلة⁽¹⁾ ، وكان من كتاب الوحي والعهد أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعمرو بن العاص ومعاوية (رضي الله عنهم) وغيرهم⁽²⁾ .

وقد جاء في القرآن الكريم عدد من الآيات التي تدل على كتابة العقود والعهد الرسمية بين المسلمين وغيرهم كما في قوله تعالى :

1- «أَوْكَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ»⁽³⁾ .

2- «إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ...»⁽⁴⁾ .

3- «إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ، الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ»⁽⁵⁾ .

4- «... وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي

(*) هو زيد بن ثابت بن الضحاك من الأنصار احد بني غنم بن مالك النجار ويكنى أبا سعد ويقال أبا عبد الرحمن ، قتل أباه في وقعة بعاث وهو ابن ست سنين ، وقدم رسول الله (ﷺ) المدينة وهو ابن أحد عشر سنة وكان آخر عرض رسول الله القرآن على مصحفه وهو اقرب المصاحف ، وقد كتب لعمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ، ومات سنة خمس وأربعون . ينظر: ابن قتيبة ، المعارف ، ص 113 .

(1) ابن سعد ، الطبقات ، 358/2 .

(2) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، 64/2 ؛ الخطيب ، وسيلة الإسلام ، 77/1 .

(3) سورة البقرة ، الآية : 100 .

(4) سورة النساء ، من الآية : 90 ، وينظر سورة النساء ، الآية : 92 تحمل نفس المعنى .

(5) سورة الأنفال ، الآية : 55 ، ومن الآية : 56 .

الَّذِينَ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ (1) .

وكان الرسول يستقبل الوفود ويجزل العطاء لهم (2) .

الفصل الثالث

إجراءات الرسول (ﷺ) في المدينة والدعوة إلى العمل الجماعي

بناء المسجد في المدينة :-

نزل رسول الله (ﷺ) عند وصوله إلى المدينة على كلثوم بن هدم ، وكان أول نزوله في بني عمرو بن عوف يوم الاثنين ويوم الثلاثاء والأربعاء والخميس وأسس مسجده (3) .

وقد اختلفت الروايات في تأسيس مسجد قباء وهل هو مسجد التقوى أم مسجد الرسول (ﷺ) الذي بناه في المدينة .

وأورد البلاذري (4) عدة روايات عن بناء المسجد منها قوله : (كان المتقدمون في الهجرة من أصحاب رسول الله (ﷺ) ومن نزلوا عليه من الأنصار بنوا بقباء مسجداً يصلون فيه والقبلة يومئذ إلى بيت المقدس فلما قدم رسول الله (ﷺ) إلى

(1) سورة الأنفال ، من الآية : 72 ، وأيضاً سورة التوبة الآيات : 1 ، 4 ، 7 .

(2) ابن هشام ، السيرة ، ق2/560-567 ؛ ابن سعد ، الطبقات ، 300-294/1 .

(3) ابن هشام ، السيرة ، ق1/494 ؛ ابن خياط ، تأريخ ، 12/1 .

(4) فتوح البلدان ، ص2 ، 9 .

قباء صلى بهم فيه) . وهو أول مسجد بني للمسلمين في المدينة وصلى بهم رسول الله (ﷺ) بأصحابه جماعة⁽¹⁾ ، وقد أورد الطبري⁽²⁾ أيضاً الروايات التي اختلفت في مسجد التقوى ، فيذكر في رواية عن قتادة إن النبي (ﷺ) سأل أهل قباء ، إن الله قد أحسن عليكم الثناء في الطهور فما تصنعون قالوا : إنا نغسل عنا اثر الغائط والبول بالماء ، كما في قوله تعالى في سورة التوبة ، الآية : 108 :

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ .

وأورد أيضاً الروايات التي تذكر أن مسجد المدينة هو مسجد التقوى ، وقد رجَّح الطبري⁽³⁾ ، أن المراد بمسجد التقوى هو مسجد الرسول (ﷺ) مستنداً إلى رواية سهل بن سعد قال : اختلف رجلان على عهد رسول الله في المسجد الذي أسس في التقوى فأتيا رسول الله فسألاه فقال هو مسجدي هذا ، ويذهب ابن حبان⁽⁴⁾ في صحيحه إلى ما ذهب إليه الطبري وهو أن مسجد التقوى هو مسجد الرسول ، ويذكر السمهودي⁽⁵⁾ رواية مختلة عن عمار بن ياسر : أن الرسول (ﷺ) هو الذي وضع أول حجر عند تأسيس مسجد قباء وهو الذي امتدحه (→) وامتدح المصلين فيه ، ويذكر البخاري⁽⁶⁾ أن الرسول (ﷺ) كان يحب أن يأتي مسجد قباء كل سبت ماشياً وراكباً فيصلي فيه ، ويذكر السمهودي⁽⁷⁾ أيضاً رأياً معتدلاً وهو رأي الجمهور قال فيه : أراد الله بمسجد أسس على التقوى هو مسجد قباء ولا ينافيه قوله (ﷺ)

(1) السمهودي ، وفاء الوفا ، 250/1 .

(2) تفسير الطبري ، 30-29/11 .

(3) تفسير الطبري ، 28-25/11 .

(4) محمد بن حبان بن احمد التميمي البستي ، (ت354هـ) ، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ،

تحقيق: شعيب الارنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، (بيروت-1993) ، ج4 ، ص482 .

(5) وفاء الوفا ، 251/1 .

(6) صحيح ، 398/10 ؛ وفي رواية عن أبي هريرة (رضي الله عنه) ؛ ينظر ، النويري ، نهاية الإرب ، 320/1 .

(7) وفاء الوفا ، 251/1 .

لمسجد المدينة (هو مسجدكم هذا) إذ كل منها أسس على التقوى ، اما ابن كثير⁽¹⁾ فيذكر : أن مسجد قباء هو مسجد التقوى وقد استند في رأيه إلى رواية عن أبي هريرة (◀) : أن الآية هذه نزلت في أهل قباء (فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المتطهرين) .

وقد ذكرنا هذه الرواية عن قتادة عندما سأل الرسول (Δ) أهل قباء إن الله أحسن عليهم الثناء في الطهور فماذا يصنعون ؟ ، وكذلك في رواية أن جبرائيل (▶) هو الذي أشار على النبي (Δ) في موضع قباء كما ذكرنا عن رواية عمار ابن ياسر ، فكان أول مسجد بني في الإسلام .

إذن يمكننا أن نستنتج من رواية البلاذري وابن كثير ورواية السمهودي أن مسجد قباء هو مسجد التقوى نفسه أما مسجد الضرار التي جاءت قصة بنائه في القرآن الكريم والذي قورن بمسجد التقوى . والذي حرم القيام فيه كما في سورة التوبة الآية : 106 : «وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِزْوَاجاً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ» .

ويذكر البلاذري⁽²⁾ ، أن سعد بن خيثمة بنى مسجد قباء وكان موضعه اللبة تربط فيه حمارها ، فقال أهل الشقاق وكانوا اثنا عشر رجلاً من المنافقين نبني مسجداً يضارون به مسجد قباء ، وتكبر هؤلاء المنافقون وقالوا لا نسجد في موضع كان يربط فيه حمار لبة ، ولكننا نتخذ مسجداً نصلي فيه حتى يجيئنا أبو عامر^(*)

(1) البداية والنهاية ، 209/3 .

(2) فتوح البلدان ، ص 9-10 ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، 209/3 ؛ السمهودي ، وفاء الوفا ، 251/1 .

(*) أبو عامر : الفاسق كما اسماء النبي (Δ) ، وكان يسمى أيضاً بالراهب قبل لأنه ترهب وكان شديد العداوة للنبي (Δ) حسداً وعناداً لذهاب رياسته التي كانت في الاوس قبل هجرة النبي (Δ) للمدينة ، فقال للمنافقين انتظروني فسأتي بقيصر وآتيكم بجند فنخرج محمد وصحبه ، وكان على رأس المنافقين ، وله بني مسجد ضرار ، ويعني الارصاد : الترقب . ينظر : ابن قتيبة ، المعارف ، ص 343 ؛ الجصاص ، أبو بكر احمد بن علي الرازي (ت370هـ) ، أحكام القرآن ، دار الكتب العلمية (بيروت-

فيصلي بنا فيه ، وكان الرسول (ﷺ) يستعد للخروج إلى غزوة تبوك⁽¹⁾ ، فلم يلب مطلبهم فأنزل (ﷻ) تلك الآيات المذكورة فنهاه (ﷻ) أن يصلي فيه .

اما عن بناء مسجد الرسول في المدينة ، وهو المسجد الذي قال عنه الرسول (ﷺ) : - إن الصلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام⁽²⁾ ، والذي قال فيه : (ثم لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد ، المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي هذا)⁽³⁾ ، وصل الرسول الكريم (ﷺ) إلى المدينة بعد خروجه من قباء ، وكان سكان الأحياء المختلفة يمسون بزمام ناقته ويرجونه أن يترحل للإقامة بينهم ، فكان يجيبهم قائلاً : -

(خلو سبيلها فإنها مأمورة)⁽⁴⁾ ، حتى إذا أتت الناقة دار بني مالك بن النجار بركت في مربد^(*) ونزل رسول الله (ﷺ) عن الناقة وحمل أبو أيوب الأنصاري رحله فوضعه في بيته واستضاف النبي في داره - وكلمه الأنصار في النزول عليهم فقال : المرء مع راحاله⁽⁵⁾ ، ثم اشترى الرسول (ﷺ) المربد بعشرة دنانير وأمر أن يبني في مكانه مسجداً للمسلمين⁽⁶⁾ ، وكان هذا أول عمل قام به الرسول بعد وصوله للمدينة أي في السنة الأولى من الهجرة⁽⁷⁾ ، وعمل بيده الطاهرة ليرغب

د.ت. ،

ج 3 ، ص 21 .

(1) الطبري ، تفسيره ، 23/11 .

(2) البخاري ، صحيح ، 398/1 ، في رواية عن أبي هريرة (ﷺ) ؛ النويري ، نهاية الإرب ، 320/1 .

(3) ابن حبان ، صحيح ابن حبان ، 495/4-496 .

(4) ابن هشام ، السيرة ، ق 495/1 .

(*) المربد : الموضع الذي يجفف فيه التمر ، وكان لغلامين يتيمين في بني النجار . ينظر: اليعقوبي ،

تأريخ اليعقوبي ، 31/1 .

(5) المصدر نفسه ، 31/1 .

(6) السخاوي ، التحفة اللطيفة ، 15/1 .

(7) العيدروسي ، النور السافر ، ص 9 .

المسلمين في العمل وكان يقول ويردد معه المسلمون (لا عيش إلا عيش الآخرة * اللهم ارحم الأنصار والمهاجرة) (1) .

وبنى إلى جانبه منزله الذي انتقل إليه بعد سبعة أشهر قضاها في ضيافة أبي أيوب الأنصاري ، وبني المسجد باللبن ورفع أساسه بالحجارة ثلاثة أذرع عن الأرض ، وسقف بالجريد وجعل عمده جذوعاً⁽²⁾ طوله مما يلي القبلة إلى مؤخرة مائة ذراع^(**) ، مربع الشكل وجعلوا قبلته إلى بيت المقدس وجعل له ثلاثة

أبواب⁽³⁾ . وقد جاء في القرآن الكريم عن عمارة المسجد . كما في قوله تعالى :
﴿إِنَّمَا يَغْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ...﴾ (4) .

وبنو حول المسجد بيوتاً لأزواج النبي⁽⁵⁾ ، من اللبن وسقفها بجذوع النخل

والجريد⁽⁶⁾ ، وقد جاء ذكر حجرات زوجات الرسول (△) في كتابه العزيز :
﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا
يَعْقِلُونَ﴾ (7) .

وأمر (⇒) بصرف القبلة نحو المسجد الحرام في شعبان بعد هجرة الرسول إلى المدينة بسنة وخمسة أشهر ، وقيل بسنة ونصف ، وقيل بعد ثمانية عشر شهراً من مقدمه إلى المدينة⁽⁸⁾ ، أي في السنة الثانية للهجرة ، أمر (⇒) بتحويل القبلة

(1) ابن هشام ، السيرة ، 496/1 ؛ ابن سعد ، الطبقات ، 240/1 .

(2) ابن سعد ، الطبقات ، 239/1 ؛ الطبري ، تاريخ ، 396/2 .

(**) الذراع: وهو اليد ويراد بها ما يذرع به ويقاس مثل ذرع الثوب وغيره من باب قطع . ينظر : الرازي ، مختار الصحاح ، ص 221 .

(3) ابن سعد ، الطبقات ، 239/1-240 .

(4) سورة التوبة ، من الآية : 18 .

(5) ابن سيد الناس ، عيون الأثر ، 196/1 .

(6) عبد الهادي ، يوسف ، ثمار المقاصد في ذكر المساجد ، محمد سعد أطلس ، ج 3 ، ص 166 ، المعهد

الفرنسي ، (دمشق-1943) ؛ فكري احمد ، المسجد الجامع بالقيروان ، مطبعة المعارف ،

(مصر-1936) ، ص 46 .

(7) سورة الحجرات ، الآية : 4 .

(8) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ص 30 .

ففي قوله تعالى : ﴿أَقْدَ نَرَى تَقَلَّبَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُؤَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (1) .

حيث كانت الكعبة المشرفة أحب القبلتين إلى رسول الله فكان تطلعه إلى السماء سائلاً الله تعالى بتحويلها إلى بيت الله الحرام حيث الأهل والحنين (2) .
وقالت اليهود إن الرسول (Δ) بعد تحويل القبلة انه ابتدع ذلك فكان رده (⇒) أنهم يعلمون (اليهود والنصارى) أن تحويل القبلة حق وبأمر من الله ، فهي قبلة النبي إبراهيم (►) وهذه قبلة حق (3) .

ولبناء المسجد أهمية كبيرة يمكن إجمالها بما يلي :-
أولاً : انه مكان يجتمع فيه المسلمون لتأدية فريضة الصلاة ولتلقى التعاليم الدينية .

ثانياً : ولبناء المسجد أهمية كبيرة فقد ضرب الإسلام في المدينة أول قاعدة نحو الوحدة الاجتماعية فهو المركز الرئيس لقيادة المسلمين حيث تنطلق منه رايات الجهاد ، وكانت معظم القرارات والتعليمات التي تصدر عن الرسول (Δ) تلقى من على منبره (4) .

ثالثاً : كان بمثابة دار الندوة للجماعة الإسلامية تبحث فيه شؤون المسلمين

العامة (5) ، وفيه يتم التعليم ، وقد كان المدرسة الأولى في الإسلام وفيه يلتقي رسول الله (Δ) بوفود العشائر والقبائل وفيه تعقد الاتفاقيات .

(1) سورة البقرة ، الآية : 144 .

(2) الواحدي ، الوجيز ، 136/1 .

(3) الطبري ، تفسيره ، 19/2 .

(4) البوطي ، محمد سعيد ، فقه السيرة ، ط1 ، مكتبة الشرق الجديد ، (بغداد-1990) ، ص152-153 .

(5) الفراجي ، عدنان علي ، الحياة الفكرية في المدينة المنورة في القرنين الأول والثاني للهجرة ،

الموسوعة العلمية ، العدد 28 ، (بغداد-2002) ، ص23 .

رابعاً : ويذكر أن المسجد كان مأوى لمن لا مأوى له مثل أهل الصفة(*) فهو لذي الحاجة والعلة واليلة المطيرة واليلة الشاتية(1) .

المؤآخاة :-

لقد وضع رسول الله (ﷺ) نصب عينيه منذ وصوله إلى المدينة إزالة عوامل الفرقة والعداوة بين الاوس والخزرج من اجل بناء مجتمع جديد متماسك ، ولم يجد أفضل من مبادئ الإسلام من حب وخير ومساواة وعدل وان يحب الإنسان لأخيه الإنسان ما يحبه لنفسه ، فيذكر ابن سعد(2) أن أول خطوة اتخذها الرسول(ﷺ) في المدينة حثهم على التعاطف والتراحم قائلاً لهم :- (يا أيها الناس افشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام وصلوا والناس نيام وادخلوا الجنة بسلام) .

لهذا نراه جمع الاوس والخزرج تحت اسم واحد وهو الأنصار ، ذلك لأنهم آووا ونصروا الرسول والمهاجرين وصدقوا الله ورسوله ما وعدوه في بيعة العقبة . وقد أطلق عليهم (➡) هذه التسمية في كتابه العزيز في أكثر من آية(3) ، وكذلك دعاء الرسول لهم عند بناء المسجد (اللهم ارحم المهاجرين والأنصار) (4) .

1- ومن الآيات التي ورد فيها ذكر الأنصار كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ

بَعْضٍ . . . لَا (سورة الأنفال : من الآية : 72) .

(*) وهم جماعة من أصحاب الرسول (ﷺ) من فقراء المسلمين المهاجرين وقد بنى لهم الرسول ظله في مؤخرة مسجده في الجهة الشمالية يأوي لها المساكين ممن لا مأوى لهم تعرف بالصفة وحث القرآن الكريم بالتصدق عليهم . ينظر: ابن سعد ، الطبقات ، 255/1 ؛ ابن شبة ، تاريخ المدينة ، 264/1 ؛ السمهودي ، وفاء الوفا ، 453/2 .

(1) الطبري ، تفسيره ، 23-22/11 .

(2) الطبقات ، 235/1 ؛ ابن سيد الناس ، عيون الأثر ، 193/1 .

(3) السمعاني ، سعد عبد الكريم بن منصور ، (ت562هـ) ، الانساب ، تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني ، ط1 ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، (حيدر آباد الدكن-1962) ، ص259 .

(4) ابن هشام ، السيرة ، ق1/194 .

2- وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ
مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (سورة الأنفال : الآية 74) .

3- وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ الْأُولُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ
وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ (سورة التوبة: من الآية 100) .

لقد ذكر (⇒) في كتابه العزيز انه على المسلمين أن يتوحدوا ولا يتفرقوا
بالتمسك بحبل الله وهو الإسلام والقرآن الكريم وان لا يتفرقوا عن دين الله وبالاتلاف
والاجتماع على طاعة الله ورسوله ، وقد حذرهم ونهاهم من الفرقة والنعمة التي
أنعمها الله على المسلمين هي المؤاخاة⁽¹⁾ والرحمة هي الإسلام الذي أنقذكم به من
طرف جهنم عندما كنتم على الكفر قبل الإسلام وقد تمثل ذلك في قوله تعالى في
سورة آل عمران الآية : 103 : ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا
تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً
فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ
عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ
اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ .

وقد سبق ذلك خطوة قام بها رسول الله (△) في مكة قبل الهجرة كما تورد
الروايات فقد آخا بين الصحابة في مكة على الحق والمواساة⁽²⁾ ولم تتعدى ذلك^(*) .

(1) الطبري ، تفسيره ، 380/4-383 .

(2) ابن حبيب ، المحبر ، ص 70-71 ؛ ابن سيد الناس ، عيون الأثر ، 264/1 .

(*) لهذا نرى إن أبو بكر الصديق (◀) اشترى سبعة من أرقاء المسلمين واعتقهم ومنهم بلال الحبشي
وهو بلال بن رباح ، وكان اسم أمه حمامة ، وكان صادق الأيمان ، وكان أمية بن وهب يعذبه إذا
حميت الظهيرة برمضاء مكة (الأرض والحجارة الشديدة الحرارة) يلسقون ظهره بالرمضاء ليشرك بالله
فيقول احد احد ، فيمر عليه ورقة بن نوفل وهو على ذلك فيقول احد احد يابلال والله لئن قتلوه
لأخذنه حناناً ، أي لاتمسحن به ، ويذكر أن بلال كان عبداً لجارية من بني جمح بن عمرو . ينظر:
ابن هشام ، السيرة ، ق 317/1 ؛ ابن بكار ، الزبير بن بكار ، (ت 256هـ) ، جمهرة نسب قریش
وأخبارها ، تحقيق: محمود محمد شاكر ، مكتبة دار العروبة ، (القاهرة-1381هـ) ، ج 1 ، ص 412 .

وذلك للتغلب على الظروف الصعبة التي مر بها المسلمون في مكة وخاصة الضعفاء منهم لإشاعة روح المحبة والتآلف بين أصحاب الرسول (ﷺ) ، أما المؤاخاة التي جرت في المدينة والتي بدأ تنظيمها في السنة الأولى للهجرة بعد خمسة اشهر أو ثمانية من مقدم رسول الله (ﷺ) المدينة⁽¹⁾ .

وبعد بنائه المسجد ، بل إن هناك رواية تذكر أن المؤاخاة كانت قد تمت والمسجد يبتنى⁽²⁾ ، على أن المتفق عليه إن المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار كانت قبل معركة بدر حيث دعا الرسول (ﷺ) أصحابه من المهاجرين والأنصار إلى اجتماع في مسجد المدينة وحدد فيه نخبة من المسلمين ، ويذكر ابن سعد⁽³⁾ إنهم كانوا تسعين رجلاً من المهاجرين والأنصار ، وفي رواية أخرى تذكر أن جملتهم ثلاثمائة⁽⁴⁾ ، ويبدو أن هذا العدد مبالغ فيه ، لأن المراجع المتقدمة لم تذكره .

وتذكر الروايات أنهم كتبوا في أمر المؤاخاة كتاباً في دار انس ، وإن الرسول قد بين لهم أثناء ذلك الاجتماع ، انه اصطفاهم وأحب أن يؤاخي بينهم⁽⁵⁾ .

وقد كان استقبال الأنصار للمهاجرين بروح من الكرم البالغ والترحاب وقد روعي في توزيعهم الأساس العشائري بحيث يبقى مجموعة أفراد العشيرة الواحدة في مكان واحد وينزلوا على شخص واحد⁽⁶⁾ .

وعلى الرغم من فقر الأنصار إلا أنهم أظهروا كرمًا ومحبة بالغة لإخوانهم من مهاجري مكة وكفوهم مؤونة الحياة وقاسموهم طعامهم ومساكنهم⁽⁷⁾ .

(1) السمهودي ، وفاء الوفا ، 97/1 .

(2) ابن عبد البر ، الدرر ، ص 96 .

(3) الطبقات ، 238/1 .

(4) الحلبي ، علي بن إبراهيم بن احمد ، (ت1044هـ) ، إنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون

(السيرة الحلبية) ، (القاهرة-1962م) ، ج2 ، ص96-97 ؛ الطيالسي ، سليمان بن داود الفارسي ،

(ت204هـ) ، مسند الطيالسي ، دار المعرفة ، (بيروت- د.ت) ، ص 349 .

(2) الحلبي ، السيرة الحلبية ، 96/2-97 .

(6) الواقدي ، المغازي ، 378/1 .

(7) ابن شبة ، تأريخ المدينة ، 265/1 .

وقد صور لنا القرآن الكريم هذا الكرم بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْأَيْمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَخْخَ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (1) .

إن نظام المؤاخاة نظام جديد لم تألفه المدينة من قبل ، فبعد أن كان الثأر الهاجس الوحيد بين الاوس والخزرج ، أصبح هؤلاء جميعاً من المهاجرين أخوة برابطة العقيدة وليس برابطة الدم واستجابة لنداء رسول الله (ﷺ) (تآخوا في الله أخوين أخوين) (2) ، وبدافع روح الإسلام التي جاء بها القرآن الكريم في حث المؤمنين أن يكونوا كالأخوة في التناصر والتحابب والتضامن والتعاون في البأساء والضراء (3) ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ...﴾ (4) .

وقوله تعالى : ﴿الَّذِينَ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ...﴾ (5) ، بحيث إن ميراث الأنصاري يؤول بعد وفاته إلى أخيه المهاجر ، بدلاً من ذوي رحمه (*) ، حتى موقعة بدر ، حيث انتفت أسباب وجود المؤاخاة اقتصادياً واجتماعياً وذلك بعد استقرار المهاجرين وتحسن أوضاعهم المعاشية ، فنزل الوحي على الرسول الكريم للتخفيف من أعباء الأنصار بإلغاء ذلك

(1) سورة الحشر ، الآية : 9 .

(2) ابن هشام ، السيرة ، ق 505/1 .

(3) النووي ، ابو زكريا يحيى بن شرف الدمشقي (ت 676هـ) رياض الصالحين وبذيله الفتح المبين ، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد ، دار الديان ، (القاهرة - 1986) ، ج 1 ، هامش ص 134 .

(4) سورة الحجرات ، من الآية : 10 .

(5) سورة آل عمران ، الآية : 92 . والبر من الله الذي يرجوه المؤمنون وهو الجنة بأن تنفقوا من مما تحبون من أموالكم ؛ الطبري ، تفسيره ، 45/3 .

(*) ذوي الأرحام ، هم الأقرباء الاباعد الذين ليس لهم سهماً مقدره من أصحاب الفروض التي فرضها (ﷺ) في الكتاب والسنة كالأم والأب والابن والابنة والأخوات والأخوان وغيرهم كما جاء في سورة النساء آيتي المواريث : 11-12 . ينظر: السرخسي ، شمس الدين أبو بكر محمد بن أبي سهل ، المبسوط ، مطبعة السعادة ، (مصر-1324هـ) ، ج 29 ، ص 139 - 212 ، ج 30 ، ص 3 .

كما في قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (1) .

ويبدو أن المؤاخاة كانت قريبة أو مشابهة للنظام العربي القديم وهو نظام الحلف فقد جعل كل رجل من المهاجرين يُوَآخي رجلاً من الأنصار ، فيصير الرجلان اخوين بينهما من الروابط بين الأخوين من قرابة الدم الطبيعية وهكذا إذا مات احدهم ورثه الآخر وهو نظام مؤقت (2) ، لم يطلق الرسول (ﷺ) على هذه العملية (نظام المؤاخاة) بالحلف لان منزلة الحليف اقل من منزلة الابن الصريح من الصليبه ، وان القبيلة تمن عليه حمايتها وترثه إذا مات وكذلك فان ديته نصف دية ابن القبيلة ولا يقتل الصريح بالحليف فهو اقل مكانة منه (3) ، وأراد الرسول (ﷺ) بهذا النظام الجديد إقامة علاقة جديدة تقوم على المساواة والمؤاساة والتعاون والمحبة بين المهاجرين والأنصار ، لأنها كانت أخوة في الله ونلمس ذلك في قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (4) .

كان نظام المؤاخاة منسجماً مع روح الإسلام الجماعية والدعوة إلى نوع من الاشتراكية في المنافع العامة ، وما الخراج والزكاة والأخماس وغيرها سوى حقوق جماعية تشترك الجماعة مع المالك في ملكيته الخاصة (5) ، والحديث المروي عن النبي (ﷺ) : (إن المسلمين شركاء في ثلاث : في الماء والنار والكلاء) (6) ، والحديث

(1) سورة الأنفال ، الآية : 75 .

(2) الشريف ، مكة والمدينة ، ص 386-387 .

(3) العسلي ، د. خالد ، نظام المؤاخاة في عهد الرسول ، مجلة دراسات الأجيال ، العددان الرابع والخامس (بغداد-1983) ، ص 36 .

(4) سورة الحجرات ، الآية : 10 .

(5) د. تحسين حميد مجيد ، المصادرات في العراق خلال القرنين الثالث والرابع الهجري طبيعتها وآثارها السياسية والاقتصادية ، أطروحة دكتوراه غير منشورة - جامعة بغداد - كلية الآداب ، (بغداد-1980) ، ص 71 .

(6) الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ص 187 ؛ ابن ماجه ، سنن ابن ماجه ، 826/2 .

المروي : (إن الأشعريين^(*) إذا أرملوا في الغزو ، أو قل طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد ، ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية ، فهم مني وأنا منهم)⁽¹⁾ ، يؤكدان الروح الجماعية في الإسلام ، ولعل ما فعله الأنصار في مساعدة المهاجرين فهي أدلة عملية لهذه الروح الجماعية على مستوى التطبيق⁽²⁾ ، لم يكن تكيف المسلمين مع المجتمع الجديد والظروف الجديد في يثرب سهلاً ، فيذكر ابن هشام⁽³⁾ : أن رسول الله (ﷺ) عند قدومه المدينة هو واصحابه أصابتهم حمى المدينة حتى جهدوا مرضاً ... حتى كانوا ما يصلون إلا وهم قعود ، فمناخ المدينة يتميز بالمطر الغزير يتخلف الماء ويتجمع في برك قريبة منها ، تتحول أحياناً إلى مستنقعات ، مسببة بعض الأمراض ، وقد تتسرب بعض المياه الآسنة إلى بعض الآبار⁽⁴⁾ .

وقد واجه المهاجرون بعض المشاكل الاجتماعية ، ذلك إن عادات وتقاليد مكة المجتمع التجاري تختلف عن مجتمع المدينة الزراعي بعاداته وتقاليده . وكذلك التغلب على الأزمة الاقتصادية التي عانى منها المسلمون في أول مقدمهم للمدينة لأنهم تركوا متاعهم وأموالهم مهاجرين إلى الله ورسوله والعمل على تثبيت المثل الخلقية التي دعا لها الإسلام في مجتمع المدينة ، وحلت بالمؤاخاة رابطة العقيدة محل رابطة الدم التي فشلت في المدينة قبل الهجرة في أن تؤلف بين الأوس والخزرج⁽⁵⁾ ، ونرى أن القرآن الكريم قد صور المؤاخاة بين الأنصار وبين المهاجرين تصويراً دقيقاً كما في قوله تعالى : ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ

(*) الأشعريون : قبيلة يمانية نسبة إلى الأشعر بن ادد اخو مذحج ومن أشرافهم أبو موسى الأشعري صاحب رسول الله (ﷺ) . ينظر: ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، 300/3 ؛ ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، ص 397-398 .

(1) النووي ، رياض الصالحين ، 290/1 .

(2) د. تحسين حميد ، المصادرات ، ص 71 .

(3) السيرة ، ق 590/1 .

(4) درويش ، محمد طاهر ، حسان بن ثابت ، دار المعارف ، (مصر - د.ت) ، ص 14 .

(5) العسلي ، المؤاخاة ، ص 32 .

وَبِالْمُؤْمِنِينَ ، وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ⁽¹⁾ .

أي ألف الله (⇒) بين قلوبهم بالأيمان وطاعتك⁽²⁾ .

الصحيفة :-

بدأ سعي الرسول (△) لتحقيق ما يصح أن نسميه اليوم وحدة العرب وبسط سلطان الإسلام الديني والسياسي عليهم منذ الهجرة ، وقد تم ذلك على مراحل ، أهمها معاهدة المدينة و صلح الحديبية وفتح مكة والتي سنتكلم عليها تباعاً .

حاول الرسول (△) منذ مقدمه إلى يثرب أن ينظم علاقته مع جميع الأطراف والقوى الموجودة في المدينة بوثيقة تضمن لهذه الأمة الإسلامية المصغرة مستقراً آمناً خالٍ من المنازعات والخلافات .

فكان لابد لهذه الدولة الناشئة من دستور تستند اليه في تنظيم العلاقة بين المسلمين وغيرهم ممن يعيشون معهم داخل هذه الدولة وأطرافها من جهة وبين المسلمين أنفسهم من جهة أخرى ، وتشتمل الصحيفة نحواً من خمسين مادة قانونية⁽³⁾ .

أما عن تأريخ كتابة هذه الصحيفة فأننا نجد اختلافاً كثيراً في تحديدها ، فابن إسحاق لم يذكر تاريخاً للصحيفة وإنما ذكرها بعد بناء المسجد وقبل أن يذكر المؤاخاة مما يدل على أن الصحيفة كتبت في الفترة بين الشهر الخامس والسابع للهجرة⁽⁴⁾ ، بدليل أن احد فقرات الصحيفة تذكر : (وان كل غازية غزت يُعقب بعضهم

(1) سورة الأنفال ، الآية : 62-63 .

(2) ابن كثير ، تفسيره ، 323/2 .

(3) الملاح ، الوسيط ، ص 199 .

(4) ابن سلام ، أبو عبيد القاسم ابن سلام البغدادي الهروي (ت224هـ) ، الأموال ، تحقيق: محمد حامد

الفقي ، المكتبة الظاهرية ، (دمشق-1347هـ) ، ص 203 .

بعضاً⁽¹⁾ وهي إشارة صريحة على وجود عدد من الغزوات والسرايا قبل هذه الفترة أو إنها كانت بعد أن أُذن بالقتال .

ويورد الطبري⁽²⁾ أن الرسول (ﷺ) عقد لأول سرية للمسلمين على رأس سبعة أشهر من مهاجرته ، لحمزة بن عبد المطلب للتعرض إلى عير قريش⁽³⁾ . وهذه إشارة يمكن من خلالها تقدير تأريخ إعلان الصحيفة بين خمسة إلى سبعة أشهر أو تكون بعدها بشهر من مقدم الرسول (ﷺ) إلى المدينة ووجود إشارة ضمنية أخرى نستطيع من خلالها تقدير الفترة الزمنية أي بين الشهر الخامس والسابع وقد يكون الثامن وذلك من خلال ما أورده ابن سلام⁽⁴⁾ ، حيث قال : (إن هذا الكتاب كان فيما نرى ، كان قد حدث عند مقدم رسول الله (ﷺ) المدينة ، قبل أن يظهر الإسلام ويقوى وقبل أن تؤمر بالجزية من أهل الكتاب) ، وهناك إشارة أخرى ضمنية أوردها الطبري⁽⁵⁾ ، نستطيع من خلالها تأكيد التقدير الأول ، حيث ذكر إنها كانت قبل معركة بدر : (وكان قد وادع حين قدم المدينة يهودها) ، فعبارة حين : تعني الأشهر الأولى من مقدم الرسول (ﷺ) المدينة ، ويرى المستشرق مونجموري وات⁽⁶⁾، أن الوثيقة لم تكن صحيفة واحدة وإنما عدة أجزاء ولم تعقد في تأريخ

واحد ، وإن الجزء الأول من الصحيفة كان قد عقده الرسول مع قبائل المدينة في بيعة العقبة الثانية أو النقباء مع الرسول (ﷺ) بعد الهجرة ، وهذا شيء مستبعد ، ففي بيعة العقبة الثانية عندما بايع الأنصار الرسول الكريم على أن يحموه ويؤازروه عند هجرته إلى المدينة ولم تكن الظروف والتطورات قد سمحت بذلك ، ولكن بعد استقرار الرسول وإطلاعه عن كثر على مجريات الأحداث وعن العلاقات في المدينة والظروف داخل المدينة وخارجها والقوى المؤثرة وعلاقتها وموقف قريش في مكة من

(1) المصدر نفسه ، ص 203 .

(2) تأريخ ، 402/2 .

(3) الطبري ، تأريخ ، 402/2 .

(4) الأموال ، ص 207 .

(5) تأريخ ، 479/2 .

(6) محمد في المدينة ، ص 343 .

الرسول والمهاجرين في المدينة واليهود وتأثيراتهم ، لهذا دعت الحاجة إلى إصدار مثل هذه الوثيقة والصحيفة لتنظيم شؤون الدولة الجديد في المدينة ، ولعل دولة الرسول (ﷺ) في المدينة باعتمادها على دستور مكتوب وهي بداية تأسيسها كانت سابقة لم تالفها الدول آنذاك ، لأنه من المعروف في تكوين الدول أن تقوم الدولة أولاً ثم يتطور أمرها فيما بعد إلى وضع دستور لها⁽¹⁾ .

ويبدو أن قبائل اليهود الكبرى الثلاثة في المدينة لم تكن في البدء منظمة إلى هذه الصحيفة ، وإنما كانت مقصورة على البطون الصغيرة المتحالفة مع قبائل الاوس والخزرج ولكن على الرغم من ذلك فقد وضع بند عام يتيح المجال لدخول اليهود في هذا الحلف احتمالاً لما قد يحدث من الأحداث وفعلاً ألحقت هذه القبائل في محالفات ملحقة⁽²⁾ فيما بعد ، وقد وصلتنا صيغة ونصوص الصحيفة في سيرة ابن هشام⁽³⁾ بواسطة ابن إسحاق ، وجاء فيها أن الرسول (ﷺ) كان قد كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادع فيه اليهود وعاهدهم واقرهم على دينهم وأموالهم ، وشرط واشترط عليهم . ونص الصحيفة (هذا كتاب من محمد النبي (ﷺ) بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس)⁽⁴⁾ ، ومن الأمور التي كانت ملفتة للنظر في هذه الوثيقة أن الرسول (ﷺ) قد جعل الطرف الأول المهاجرين وجعل الطرف الثاني الأنصار من الاوس والخزرج والطرف الثالث اليهود في المدينة فوادعهم وكذلك المشركين ممن لم يسلموا من بطون الاوس ، وأورد ابن إسحاق⁽⁵⁾ عدة ألفاظ في تعليقه على الصحيفة تشير إلى أنها معاهدة منها : عاهد ، وادع ، أمر ، اشترط ، وشرط ، أي إن

(1) الشريف ، مكة والمدينة ، ص 387 .

(2) الشريف ، مكة والمدينة ، ص 294 .

(3) السيرة ، ق 501/1 .

(4) المصدر نفسه ، ق 501/1 ؛ ابن سلام ، الأموال ، ص 202-207 ؛ النسائي ، احمد بن شعيب

(ت 303هـ) ، السنن الكبرى ، ط 1 ، تحقيق: د. عبد الغفار سلمان ، دار الكتب العلمية،

(بيروت-1991)، ج 4 ، ص 220.

(5) ابن هشام ، السيرة ، ق 501/1-504 .

الرسول (△) قد جعل نفسه فوق كل هذه الأطراف لكونه نبي هذه الأمة الإسلامية ،
ورئيساً للدولة ، أي له مكانة متصدرة على رأس جميع القوى والأقطاب الموجودة في
المدينة ، بحيث تعطيه صلاحيات لإصدار هذا الكتاب أو القانون ، ولم يقل كتاب بن
محمد واليهود أو بين أي طرف من الأطراف السابقة المذكورة ، وقد جاء في القرآن
الكريم عدة إشارات تشير إلى أن هناك عهداً ومواثيق بين الرسول واليهود منها كما
في قوله تعالى :

1- «وَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ ...» (1)

2- «إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا
يُؤْمِنُونَ ، الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي
كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ» (2) .

والمقصود هنا في الآيتين هم اليهود ، وما كان إجلاء الرسول (△) لليهود
من بني قينقاع والنضير وقريظة إلا لنقضهم لهذه العهود والمواثيق التي في صحيفة
المدينة(*) ، وهناك بندين في الصحيفة تشير إلى كونه على رأس الدولة وبيده جميع
السلطات الدينية والسياسية (وإنكم ما اختلفتم فيه من شيء فإن حكمه إلى تبارك
وتعالى وإلى الرسول (△)) (3) ، ثم تأتي الفقرة الثانية لتأكيد سلطة الرسول في
المدينة بدون منازع وهو (انه لا يخرج احد منهم إلا بأذنه) (4) ، أي أن الرسول
(△) له السلطة بهذه الدولة والأمة وكل من تبعها ، أي قبل بشروطها وقوانينها من
غير المسلمين في المدينة والمناطق المحيطة بها .

(1) سورة البقرة ، من الآية : 100 .

(2) سورة الأنفال ، الآية : 55-56 .

(*) وسنذكر ذلك بالتفصيل في فصل الصراع مع اليهود .

(3) ابن هشام ، السيرة ، ق/1/501 .

(4) المصدر نفسه ، ق/1/501 .

وتعد الصحيفة أول وثيقة سياسية متعددة الأطراف تقر مبدأ جواز الانضمام إليها بعد توقيعها ، وإن كان هذا المبدأ قد أصبح اليوم من المسلمات في الفقه الدولي وتسمى بالمعاهدات المفتوحة⁽¹⁾ .

ونرى ذلك من خلال ذكر الصحيفة البطون الخمسة الكبرى للخزرج⁽²⁾ ، وهذا يمثل بحد ذاته واقع المدينة ، فإن بطون الخزرج كلها دخلت في دولة الإسلام حتى من كان منهم منافقاً أو دخل الإسلام ظاهرياً ، أما بطون الاوس فلم يدخل منها في الإسلام إلا بنو عمرو بن عوف وهم أهل قباء ، وبنو النبيت مدمجة باسمها العام، حيث كانت تسمى (اوس الله)⁽³⁾ .

أما اليهود فمن ضمن واجباتهم التي تضمنتها الصحيفة ، كونهم من ضمن الأمة وإن كانوا لا ينتمون إليها انتماءً وثيقاً كالمهاجرين والأنصار ، ولذلك لم تكن عليهم الواجبات نفسها وليس لهم الحقوق نفسها والحقوق بها بسبب تحالفهم مع الاوس والخزرج ، وقد أورد القرآن الكريم إشارة ضمنية لهذه المحالفات في قوله تعالى : «وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ، ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ...»⁽⁴⁾ .

ثم ألحقت بها محالفات خاصة وقد أقرهم الرسول على دينهم وأموالهم وبذلك كانت حرية المعتقد التي ضمنها دستور هذه الدولة الجديدة كما في قوله تعالى :

1- «لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ

(1) د. محمد سليم القوا ، بحث في ، ندوة النظم الإسلامية ، 66/1 .

(2) ابن سلام ، الأموال ، ص 203-206 ؛ ابن سيد الناس ، عيون الأثر ، 197/1-198 .

(3) الشريف ، مكة والمدينة ، ص 395 .

(4) سورة البقرة ، الآية : 84 ، ومن الآية : 85 ، وهي إشارة إلى محالفات اليهود فريق منهم مع الاوس

وفريق منهم مع الخزرج في الحروب الدائرة بين الاوس والخزرج ، وسنذكر ذلك مفصلاً في الباب

الثاني ، موضوع اليهود ، ص 173.

بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ لَا (1)

2- «قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» (2).

وحرية العقيدة التي نص عليها دستور المدينة ، لا يمنع جميع الأطراف من نصرة المسلمين ضد أي اعتداء خارجي وعليهم أيضاً أن ينفقوا مع المؤمنين ماداموا محاربين (3) .

ولابد لنا ونحن نتناول هذه الوثيقة أن نقف على عبارة وردت فيها ملفتة للنظر وهي : (إنهم أمة واحدة دون الناس) (4) ، وهنا قصد المسلمين ، وهذا المصطلح لم تألفه العرب ، وكلمة أُمَّة : وردت في معاجم اللغة العربية بمعاني مختلفة منها : الإِمامة : وهي حاله والأُمَّة : وهي (الشرعة والدين وهي مثل السنة) (5) ، فكان النبي إبراهيم (ﷺ) أمة ، كما جاء في قوله تعالى : «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» (6) .

ووردت أيضاً بمعنى : (النعيم والملك والدين) (7) ، والأُمَّة بالضم العامة والجمع منها أُمَّمٌ كما في قوله تعالى : «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا

(1) سورة البقرة ، الآية : 256 .

(2) سورة آل عمران ، الآية : 84 ؛ سورة البقرة ، الآية : 136 .

(3) ابن هشام ، السيرة ، ق1/502-503 ؛ الشريف ، مكة والمدينة ، ص294 .

(4) ابن هشام ، السيرة ، ق1/501 .

(5) ابن منظور ، لسان العرب ، 24/12 .

(6) سورة النحل ، من الآية 120 .

(7) الفيروز آبادي ، مجد الدين محمد بن يعقوب ، (ت817هـ) ، القاموس المحيط ، دار الفكر ،

(بيروت-1983) ، ج4 ، ص76 .

خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (1) . والشعب هنا بمعنى الأمة (2) .

وأم الشيء أصله وتأتي بمعنى أتباع النبي (3) ، وأقرب المعاني لمصطلح الأمة في الصحيفة هي الجماعة الواحدة التي على شريعة ودين واحد ، وأتباع النبي سواء آمنوا به أم لم يؤمنوا ، وهي كيان اجتماعي أيضاً ، وقد ورد مصطلح الأمة في القرآن الكريم بمعاني مختلفة ولكن معظم الآيات في القرآن الكريم مقرونة بالعقيدة عامة والتوحيد خاصة ، وقد صور لنا القرآن الكريم أمة الإسلام خير تصوير في قوله تعالى : «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ . . .» (4) .

وتذكر بعض الروايات المقصود هنا المؤمنين ، وروايات أخرى تذكر بان المقصود بخير أمة هم العرب لأنهم كانوا أكثر الأمم استجابة للإسلام ولأنهم أول من آمن وهاجر وحمل لواء الإسلام (5) ، ولأن الإسلام في أيام الرسول كان مقتصرًا على العرب وعلى الجزيرة العربية فكل المسلمين هم من العرب ، هذا إذا استثنينا بعض من أسلم من العجم بعدد أصابع اليد .

ولذلك كان الإسلام في أيام الرسول مرادف للعروبة ، ويذكر أن مصطلح الأمة قد ورد في (64 آية) (6) ، وربما قصد بذلك ورودها بمعانيها المختلفة ولكن إحصاء الآيات التي وردت بمصطلح الأمة بالمعنى الذي ورد في الصحيفة نجدها وردت في خمسين موضع فقط في القرآن الكريم مضافاً إليها موضعين جاءا بصيغة الجمع

(1) سورة الحجرات ، الآية : 13 .

(2) الطبري ، تفسيره ، 140-138/26 .

(3) المقرئ ، أحمد بن محمد بن علي الفيومي ، (770هـ) ، المصباح المنير ، المكتبة العلمية ،

(بيروت - د.ت) ، 23/1 .

(4) سورة آل عمران ، من الآية : 110 .

(5) الطبري ، تفسيره ، 391/4 ؛ معروف ، أصالة الحضارة العربية ، 26/9 .

(6) الملاح ، الوسيط ، ص 203 .

(أمتكم - فيصبح المجموع = 52 آية وردت في القرآن الكريم^(*)) ، وكذلك من بنود الصحيفة : (وان ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم ، وان المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس)⁽¹⁾ .

أي أولياء كما جاء في قوله تعالى : «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ»⁽²⁾ .

ويرى المتصفح لوثيقة المدينة أن الجماعة القائمة على أساس الدين (المسلمون) غلبت على تلك الجماعات القديمة القائمة على أساس رابطة الدم (القبائل والبطون والعشائر) في الجماعة الكبرى الجديدة وتعهد باختصاصاتها كوحدة قبلية إلى الدولة ، وأبقى لها كل ما من شأنه أن يحفظ على الناس الروابط فيما بينهم ، فأبقى لرؤسائها الديات والغرم ، والجميع مسؤول عن حفظ الأمن والنظام وتطبيق القوانين ذاتياً .

ونرى الصحيفة في مجموع بنودها شرعت جملة قوانين وقواعد أرسى من خلالها الرسول (ﷺ) القواعد الأساسية لطبيعة العلاقة بين الفئات المختلفة في المجتمع المدني الجديد ، حدد فيها ما للمشاركين من حقوق المواطنة والمعايشة وحرية الاعتقاد ، واشترط عليهم النصح للدولة الإسلامية وعدم التآمر عليها ، وعدم

(*) سورة البقرة الآيات : 128 ، 134 ، 141 ، 143 ، 213 ؛ آل عمران الآيات : 104 ، 110 ، 113 ؛ النساء الآية : 41 ؛ المائدة : 48 ، 66 ؛ الأنعام : 108 ؛ الأعراف : 34 ، 38 ، 159 ، 164 ، 181 ؛ يونس : 19 ، 47 ، 49 ؛ هود : 8 ، 118 ؛ يوسف : 45 ؛ الرعد : 30 ؛ الحجر : 5 ؛ النحل : 36 ، 84 ، 89 ، 92 ؛ فرقان ، 3 ، 120 ؛ الأنبياء : 92 ؛ الحج : 34 ، 67 ؛ المؤمنون : 43 ، 44 ؛ الزخرف : 22 ، 23 ، 33 ؛ الجاثية : 28 مرتين . ينظر: هاشم الملاح ، الوسيط ، ص203 ؛ عبد الباقي ، محمد فؤاد ، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، دار الحديث ، (القاهرة-2001م) ، ص98-99.

(1) ابن هشام ، السيرة ، ق1/502 .

(2) سورة التوبة ، الآية : 71 .

إجازة مشركي قريش ولا أموالهم ، وعدم الحيلولة بين المؤمنين وبين احد من المشركين وأصبح سكان المدينة صفاً واحداً على الرغم من اختلاف ميولهم وأهوائهم ودياناتهم وجعلهم كتلة متحدة للدفاع عنها ضد الغارات الخارجية وكتلة واحدة للقضاء على الاختلافات الداخلية⁽¹⁾ ، وقد وضع الرسول الكريم(ﷺ) هذا الدستور لتنظيم الحياة العامة في المدينة وتحديد العلاقات بينها وبين جيرانها ، ويدل هذا الدستور على أن دولة المدينة أصبحت دولة وفاقية بالتوافق بين أطرافها المتعددة عاصمتها المدينة ورئيسها رسول الله (ﷺ) وصاحب الكلمة النافذة فيها والسلطان الغالب فيها للمسلمين ، وتدلل هذه الصحيفة على مقدرة فائقة من الناحية التشريعية وعلى علم بأحوال الناس وظروفهم .

وان الناظر في هذه الصحيفة ليعجب من بعد نظر واضعها وتسامحه وقدرته على التوفيق بين الاضداد ، فبهذه الصفات تمكن النبي (ﷺ) قبل مضي سنة على قدومه إلى المدينة مهاجراً من أن يصبح سيدها في الحكم وقائدها في الحرب وهادياً في الدين⁽²⁾ .

(1) ابن هشام ، السيرة ، ق/1-502-503 .

(2) الطيباوي ، محاضرات ، ص 14 .

الفصل الرابع

دولة المدينة والأمة
المجاهدة :-

الخطوات التي اتبعتها الرسول (ﷺ) في
نشر الدعوة الإسلامية وتوحيد الجزيرة
العربية

الجهاد :- مشروعيته ومراحل تشريعه -
الإذن بالقتال

الجهاد في سبيل الله أساس صيانة الدولة ، وقوامة الجهاد القتال والإعداد
له .

القتال اصطلاحاً هو المقاتلة والمحاربة بين اثنين⁽¹⁾ ، وردت كلمة القتال ومشتقاتها
في القرآن الكريم نحو مائة وسبعين موضعاً⁽²⁾ ، كما في قوله تعالى : «كُتِبَ
عَلَيْكُمْ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً
وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ»⁽³⁾ .

(1) ابن منظور ، لسان العرب ، 64/14 ؛ والقتال لغة : هو اصل صحيح ، وقتله - يقتله قتلاً وقتله أي
أنهى حياته واماته ؛ الأزدي ، أبي بكر محمد بن الحسين بن دريد ، جمهرة اللغة ، ط1 ، دار صادر ،
(بيروت-1345هـ) ، ج2 ، ص25 .

(2) عبد الباقي ، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، ص643-645 .

(3) سورة البقرة ، الآية : 216 .

وقصد هنا بالكره لذكره وليس كره فرضه الله عز وجل ، بسبب ما به من غلظة ومشقة⁽¹⁾ ، وإخراج للمال ومفارقة للوطن والأهل والتعرض بالجسد للشجاج والجراح والقطع وذهاب النفس فكانت كراهيته لذلك⁽²⁾ .

ورغم ذلك أمر الله به وهذا دليل على ما فيه من خير لنا والله يعلم ما لا نعلم⁽³⁾ .

أما الجهاد :- وهو عادة مقترنة بالقتال وكما جاء في اللغة :- هو كلمة مأخوذة من الفعل جهد بفتح الجيم وضمها ، فهو بالضم الوسع والطاقة⁽⁴⁾ ، كما في قوله تعالى : «الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»⁽⁵⁾ .

والجهد بالفتح المشقة ، وهو ما جهد الإنسان من مرض أو ضنك العيش أو جهد البلاء أو أي أمر شاق⁽⁶⁾ ، والجهد هو بلوغك غاية الأمر الذي لا تألوا على الجهد فيها .

والجهاد :- الأرض المستوية الغليظة⁽⁷⁾ ، وجهاداً ومجاهدة بالكسر : هو بذل الوسع والمجهود في قتال العدو⁽⁸⁾ ، والجهاد اصطلاحاً : هو مقاتلة ومحاربة الأعداء وبذل الجهد والطاقة⁽⁹⁾ ، أي بأموالكم والسننكم وأنفسكم⁽¹⁰⁾ ، ويذكر ابن حجر

(1) الأزهري ، الزاهر ، ص 39 .

(2) القرطبي ، تفسيره ، 39/3 .

(3) ابن تيمية ، احمد بن الحليم الحراني (ت728هـ) ، رسائل وفتاوى ابن تيمية في التفسير ، تحقيق: عبد الرحمن محمد النجدي ، (د.م- د.ت) ، ج 15 ، ص 9 .

(4) ابن منظور ، لسان العرب ، 133/3 ؛ الجوهري ، إسماعيل بن حماد ، الصحاح ، تحقيق: احمد عبد الغفور عطار ، دار الكتاب العربي ، (القاهرة-1956) ، ج 5 ، ص 1797 .

(5) سورة التوبة ، الآية : 79 .

(6) ابن منظور ، لسان العرب ، 134/3 .

(7) المصدر نفسه ، 134/3 .

(8) الفيروز آبادي ، القاموس المحيط ، 186/1 .

(9) ابن منظور ، لسان العرب ، 135/3 .

(10) ابن كثير ، تفسير ، 236/3 .

العسقلاني⁽¹⁾ ، هو بذل الجهد في مدافعة الأعداء ، وبذل الجهد في إرشاد الكفار إلى دين الحق بالقول والفعل وللجهاد معاني أوسع بكثير من قتال الأعداء والعمليات الحربية ، ويذكر القرطبي⁽²⁾ قائلاً : - هو الامتثال لجميع ما أمر الله به والانتهاز عن كل ما نهى عنه أي جهاد النفس في طاعة الله وردّها عن الهوى وجهاد الشيطان في رد وسوسته ، ورد الظلمة في ظلمهم . والكافرين في رد كفرهم ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ... ﴾ (3) .

والجهاد في الشرع : هو واجب على كل مسلم حر ، ذكر بالغ كامل العقل مطيق له صحيح من المرض والعمى والعرج ، بشرط حضور إمام ، داعياً إليه أو من يؤمره⁽⁴⁾ .

وفي رواية يذكرها القرطبي⁽⁵⁾ : أن الجهاد فرض على كل مسلم في عينه ، أي إذا عين ولي الأمر أناساً للخروج وجب عليهم الإجابة ويصيبهم الإثم بعدم الإجابة ، أما رأي الإجماع (أن الجهاد على كل أمة محمد (ﷺ) فرض كفاية فإذا قام به من قام من المسلمين سقط عن الباقيين إلا أن ينزل العدو بساحة الإسلام فهو حينئذ فرض عين)⁽⁶⁾ ، كما في قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ

(1) فتح الباري ، 6/3 .

(2) تفسيره ، 99/12 .

(3) سورة الحج ، من الآية ، 78 .

(4) الحلي ، يحيى بن سعيد ، (ت690هـ) ، الجامع للشرائع ، تحقيق : جمع من الفقهاء ، مؤسسة سيد

الشهداء ، (النجف - د.ت) ، ص233 .

(5) تفسيره ، 39/3 ؛ في رواية عن ابن المسيب ، مثال ذلك سورة البقرة ، الآية : 216 ؛ التي ذكرناها في بداية الموضوع .

(6) المصدر نفسه ، 39/3 .

اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ
أَجْرًا عَظِيمًا (1) .

وفي رأي آخر للفقهاء عدوا الجهاد فرض تطوع (2) ، كما جاء في قوله
تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ
وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
فَيُقْتَلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقٌّ فِي التَّوْرَةِ
وَالْأَنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ
فَأَسْتَبْشِرُوا بَبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ
الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (3) .

وجوهر الجهاد ومفتاحه الصبر على المقدور ، وقد انعم (⇒) على أمة النبي
محمد (Δ) بالصبر وبشّرت به ، فأعطيت ما لم تعطِ الأمم من قبلها (4) ،
كما في قوله تعالى : ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ
وَحَيْثُ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُتَّقُونَ (5) .

لقد ذكرت كلمة الجهاد ومشتقاتها في القرآن الكريم في اثنين وأربعين موضعاً
من القرآن الكريم (6) .

وقد حث (⇒) في كتابه العزيز في أكثر من آية ومناسبة ورغب فيه كما جاء
في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا
وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ
عَفُورٌ رَحِيمٌ (7) .

(1) سورة النساء ، الآية : 95 .

(2) القرطبي ، تفسيره ، 39/3 ؛ في رواية عن الثوري .

(3) سورة التوبة ، الآية 111 ؛ ولمزيد من الإيضاح ينظر القرطبي ، تفسيره ، 39/3 .

(4) ابن تيمية ، رسائل وفتاوى ابن تيمية ، 43/14 .

(5) سورة البقرة ، من الآية : 177 ، والبأساء : هو حالة الفقر والمرض والأسقام والبأس :

هو القتال ؛ ابن كثير ، تفسيره ، 209/1 .

(6) ينظر محمد فؤاد عبد الباقي ، القرآن المفهرس ، ص 224-225 .

(7) سورة البقرة ، الآية : 218 .

وكذلك في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (1) .

وقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (2) .

وحدث النبي (ﷺ) في أحاديثه على الجهاد أيضاً ورغب فيه وفي أحاديث كثيرة عن أبي هريرة عن الرسول (ﷺ) سئل ما يعدل الجهاد قال لا تستطيعون ، فكرروا عليه السؤال ثلاث مرات ، فأجابهم قائلاً : مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صلاة ولا صيام حتى يرجع المجاهد في سبيل الله (3) ، وفي الحديث على الجهاد قال رسول الله (ﷺ) : (ولا تغمدوا السيوف عن أعدائكم فتوتروا ثأركم) (4) ، أي توجده الوتر في أنفسكم .

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن الرسول (ﷺ) قال : (ثم انتدب الله عز وجل لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا الأيمان بي وتصديق برسلي أن أرجعه بما نال من اجر أو غنيمة أو ادخله الجنة ولولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية ولوددت أني أقتل في سبيل الله ثم أحيأ ثم أقتل ثم أحيأ ثم أقتل) (5) .

(1) سورة المائدة ، الآية : 35 .

(2) سورة الانفال ، الآية : 784 ؛ وينظر الآية : 75 من نفس السورة في نفس المعنى .

(3) الترمذي ، محمد بن عيسى السلمي ، (ت279هـ) ، سنن الترمذي ، تحقيق : احمد محمد شاكر ، دار

إحياء التراث العربي ، (د.م- د.ت) ، ج4 ، ص1640 ، كتاب فضائل الجهاد ؛ السيوطي ، عبد

الرحمن بن كمال جلال الدين (ت911هـ) ، الدرر المنتورة ، دار الفكر ، (بيروت-1993) ، ج1

، ص88 ؛

النووي ، رياض الصالحين 161/2 .

(4) ابن قتيبة ، أبو عبد الله بن مسلم الدينوري ، (ت276هـ) ، غريب الحديث ، ط1 ، تحقيق : د. عبد الله

الجبوري ، مطبعة العاني ، (بغداد-1397هـ) ، ج2 ، ص177 .

(5) البخاري ، صحيح ، 22/1 .

وعن مشروعية الجهاد ، فلم يكن الدين الإسلامي دين عنف وقوة ودمار بل العكس فقد اجتنب الدين الإسلامي القوة كشأن جميع الأديان ، وأنه ما كان لينتصر بالقوة لو لم يكن إلى جانب ذلك صالحاً للانتصار⁽¹⁾ .

فقد بدأ الإسلام عهده وهو معتدى عليه ولم يعتدِ هو على احد كما في قوله تعالى : «الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ...»⁽²⁾ .

ويذكر ابن هشام⁽³⁾ عن ابن إسحاق: حول نزول الأمر لرسول الله في القتال: (كان رسول الله قبل بيعة العقبة لم يؤذن له في الحرب ولم تُحلل له الدماء ، إنما يؤمر بالدعاء إلى الله والصبر على الأذى والصفح عن الجاهل ، وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين ففتنوه عن دينهم ونفوه من بلادهم ، منهم بين مفتون في دينه وبين معذب من أيديهم وبين هارب في البلاد فراراً منهم ، منهم بأرض الحبشة ومنهم بالمدينة وفي كل وجه) ، وكان مشركو مكة يؤذون أصحاب رسول الله (ﷺ) أذى شديداً وكانوا يأتون رسول الله (ﷺ) من بين مضروب ومشجوج يتظلمون إليه⁽⁴⁾ .

(1) العقاد ، عباس محمود ، العبقريات الإسلامية ، ص 35 .

(2) سورة الحج ، من الآية : 40 .

(3) السيرة ، ق 467/1 .

(4) الزمخشري ، الإمام جار الله محمود بن عمر (ت 528هـ) ، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعبون

الأقاويل في وجوه التأويل ، دار الكتاب العربي ، (بيروت - د.ت) ، ج 3 ، ص 160 .

ويذكر خباب بن الارت(*) أن رسول الله كان يصبر المسلمين قائلاً : (اصبروا فإني لم أؤمر بالقتال حتى هاجر الرسول فأنزل عزل وجل أول آية تأذن للرسول في الحرب وأحل له الدماء والقتال لمنبغي عليهم)⁽¹⁾ ، كما في قوله تعالى : ﴿أَذِنَ لِّلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾⁽²⁾ .

وكذلك نزول القرآن الكريم (الآيات المكية) فيه تحت المسلمين على الصبر والدفع بالتي هي أحسن مع الوعد بالنصر النهائي بعون الله ، ويبدو أن الله (ﷻ) قد هَيَّأ أذهان المسلمين للجهاد للرد على العدوان في سورة الشورى وهي من أواخر السور المكية⁽³⁾ ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ، وَجِزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ، وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾⁽⁴⁾ .

لقد كانت حروب العرب في الجاهلية تدور في الغالب حول أمرين رئيسيين هما الثأر والغزو ، ولما جاء الإسلام دخلت الحرب عند العرب في دور جديد لا علاقة له بالسببين المذكورين ، فدعاهم الإسلام إلى نوع جديد من الحرب هو حرب الدفاع عن النفس وعن المبادئ والمثل العليا التي جاء بها الدين الجديد ، أي إن الإسلام نهى

(*) وهو خباب بن الارت بن خزيمه بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم التميمي ويقال الخزاعي أبو عبد الله ، سبي في الجاهلية فبيع في مكة ، مولى أم انمار الخزاعية ، ثم حالف بني زهرة واسلم قديماً سادس ستة وهو من المستضعفين وهو أول من أظهر إسلامه وعذب عذاباً شديداً ظل يعاني من آثاره وشهد المشاهد كلها ومنها بدر ، ثم نزل الكوفة ومات بها سنة 37هـ . ينظر: ابن قتيبة ، المعارف ، ص316-317 ؛ الذهبي ، أبو عبد الله محمد بن احمد بن عثمان ، (ت748هـ) ، طبقات المحدثين ، ط1 ، تحقيق: همام عبد الرحيم ، دار الفرقان ، (عمان-404هـ) ، ج1 ، ص279 ؛ ابن حجر العسقلاني ، احمد بن علي (ت852هـ) ، الإصابة في تمييز الصحابة ، ط1 ، دار الجيل ، (بيروت-1990) ، ج2 ، ص258 .

(1) الطبري ، تفسيره ، 248/9 .

(2) سورة الحج ، الآية : 39 .

(3) الملاح ، الوسيط ، ص214 .

(4) سورة الشورى ، الآية : 39-41 .

عن حرب الاعتداء لكسب المتاع أو المرعى أو الدواب ، وأجاز حرب الدفاع⁽¹⁾ ،
﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا
تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾⁽²⁾ .

وقوله تعالى : ﴿... فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى
الظَّالِمِينَ﴾⁽³⁾ .

وشرع (⇒) الجهاد للدفاع عن الدين ومبادئه ولإعلاء كلمة الله ودينه حتى لا
يكون شرك ويكون دين الله هو الظاهر على سائر الأديان⁽⁴⁾ ، كما في قوله تعالى :
﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ
فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾⁽⁵⁾ .

وعن الرسول الكريم (△) قال : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله إلا
الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق اله وحسابهم على
الله)⁽⁶⁾ ، ولقد شرع الجهاد أيضاً لتأمين نشر الدعوة والدفاع عنها ضد من يقف في
سبيلها حتى لا تحدث الفتنة في الدين كما حصل لعمار بن ياسر وبلال في بداية
الدعوة⁽⁷⁾ ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ
وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ
الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا
وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾⁽⁸⁾ .

(1) د. تحسين حميد مجيد ، تكريم المحاربين ، المؤرخ العربي ، العدد 32 ، (بغداد-1987م) ، ص 1 .

(2) سورة البقرة ، الآية : 190 .

(3) سورة البقرة ، الآية : 193 .

(4) الطبري ، تفسيره ، 248/9 .

(5) سورة الانفال ، الآية : 39 ؛ ينظر الطبري ، تفسيره ، 248/9-250 ؛ حيث كانت الفتنة الأولى

الخروج إلى الحبشة والفتنة الثانية هو الخروج إلى المدينة . وعنى هنا بالفتنة: أي الشرك .

(6) البخاري ، صحيح ، 17/1 ؛ ابن كثير ، تفسيره ، 227/1 .

(7) حسن إبراهيم ، النظم الإسلامية ، ص 224 .

(8) سورة النساء ، الآية : 75 .

ومن أجل تأمين الدعوة للدخول في الإسلام كما في قوله تعالى : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ...﴾ (1) .

وإذا تفحصنا آيات القرآن الكريم في القتال ، ورجعنا إلى ظروف التنزيل حرباً حرباً وسرية سرية ما خالطنا شك في أن الحرب المشروعة في الإسلام هي الحرب الدفاعية ، وإن من مزايا الشريعة الإسلامية أنها شريعة عملية تواجه الحقائق البشرية والفطرية ، وتجاوبه العضلات بالحلول العملية فما دامت الموعظة الحسنة لا ترد الظلم البشري ، ولا تمنع من وقوع الاعتداء ، وما دام أعداء الإسلام يُمعنون في عدائهم ولا يقنعون بحسن الجوار ولا يراعون العهود القائمة على مبادئ العدالة والحرية والإنصاف ، وماداموا يوقعون الاعتداء ، ويثيرون الحروب ، فإن الإسلام لا يقف تجاههم ذليلاً خاضعاً مكتوف اليدين تجاه الاعتداء ، بل يقابل الشر بالشر والاعتداء بالاعتداء ، ويجابه الحوادث والوقائع بالحزم والعزم والشدة مع الحكمة إلى أن يكف الباغي عن غيه ، ويتوقف المعتدي عن عدوانه ويعود إلى الحق ويركن إلى السلام ، وإن هذه السياسة الحكيمة قد رافقت الرسول (ﷺ) في جميع حروبه واتبه حلفاؤه من بعده (2) ، ولم يفرض الجهاد في مكة لأنها كانت مرحلة صبر وبناء عقائد للمسلمين الأوائل الذين تم على يدهم نشر الإسلام وبعونه تعالى (3) .

فكان الرسول في مكة مدة ثلاثة عشر عاماً يدعو قومه إلى الإسلام بالموعظة الحسنة .

وأما السبب الثاني : لأن المسلمين كانوا قوة مستضعفة في مكة ، ويذكر ابن كثير (4) قائلاً : (إنما شرع الله تعالى الجهاد في الوقت الأليق به لأن - المسلمين لما كانوا بمكة ، كان المشركون أكثر عدداً فلو أمر المسلمين وهم أقل العشر بقتال الباقيين لشق عليهم) ، وربما صح اعتبار الهجرة النبوية ابتداءً حقيقياً لنظام الحرب

(1) سورة البقرة ، الآية : 256 .

(2) تحسين حميد ، تكريم المحاربين ، العدد 32 ، ص 1 .

(3) اللهيبي ، محمود تركي فارس ، التنظيمات العسكرية في عصر النبوة والخلافة الراشدة ، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى جامعة بغداد - كلية التربية ، (بغداد-1995) ، ص 26 .

(4) تفسيره ، 227/1 .

في الإسلام ، فبعد نزول الآية الكريمة : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ
بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (1) .

بدأ المسلمون يدخلون دوراً جديداً من الصراع ضد خصومهم ، وهو الدور
العسكري المسلح دفاعاً عن سيادتهم واسترجاعاً لحقوقهم ، وتعدّ هذه المرحلة الثانية
بعد تشريع الجهاد وهي مرحلة فرض القتال على المسلمين بعد الهجرة ، فيذكر
الشافعي (2) : (ولما مضت لرسول الله مدة من هجرته انعم الله فيها على جماعات
بإتباعه حدثت لهم بها مع عون الله عز وجل قوة بالعدد لم يكن قبلها . ففرض الله
عز وجل عليهم الجهاد بعد إذ كان أباحه) ، ثم أخذت الآيات القرآنية تترى وترغب
المسلمين في الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمته ورفع شأن المسلمين وتدعوهم إلى
العمل على تحقيق وحدتهم (3) : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ
لَكُمْ...﴾ (4) .

وهي المرحلة الأخيرة من مراحل تشريع الجهاد بعد أن فرضه في كتابه وعلى
لسان نبيه الكريم حيث أكد على النفير في الجهاد على كل مطيق له لا يسع أحداً
منهم التخلف عنه (5) ، وأكد الإيجاب وعظيم الجهاد وحث عليه في عامة السور
المدنية (6) . كما في قوله تعالى :

1- ﴿... وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ
كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (7) .

(1) سورة الحج ، الآية : 39 .

(2) أبو عبد الله محمد بن إدريس ، (ت204هـ) ، أحكام القرآن ، تحقيق: عبد الغني عبد الخالق ، دار
الكتب العلمية ، (بيروت-1400هـ) ، ج2 ، ص17 .

(3) تحسين حميد ، تكريم المحاربين ، العدد 32 ، ص1 .

(4) سورة البقرة ، من الآية: 216 وقد ذكرناها في معنى القتال .

(5) الشافعي ، أبو عبد الله محمد بن إدريس ، (ت204هـ) ، الرسالة ، تحقيق: احمد محمد شاكر ،
(القاهرة-1939) ، ج1 ، ص361 .

(6) د . تحسين حميد ، تكريم المحاربين ، العدد 32 ، ص2 .

(7) سورة التوبة ، من الآية : 36 .

2- إِنْ اللَّهُ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (1)

ثم بعد ذلك خفف الباري عز وجل عن المقاتلين المؤمنين إذ علم ضعفهم وإعلاماً منه بمعونته ونصره (2) ، كما في قوله تعالى : إِنْ الْآنَ خَفَّ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (3) .

وقد ذم (⇒) في كتابه العزيز التاركين له ، ووصفهم بالنفاق ومرض القلب : إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ ... لَا (4) .

وقوله : إِنَّْمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (5) ، وقوله تعالى : إِنَّْمَا عَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ... لَا (6) .

(1) سورة التوبة ، الآية : 111 .

(2) الطبري ، تفسيره ، 38/10 .

(3) سورة الانفال ، الآية : 66 .

(4) سورة التوبة ، الآية : 24 .

(5) سورة الحجرات ، الآية : 15 .

(6) سورة التوبة ، من الآية : 118 .

وهم الثلاثة الذين خلفهم الله عن التوبة وضاعت الأرض عليهم غماً وندماً على تخلفهم عن الجهاد وخوفاً من نقمة الله على الذين تخلفوا عن الجهاد وقد قاطعهم الرسول والمسلمون وحتى نساؤهم وهم كعب بن مالك شاعر الرسول وهلال بن أمية ومرارة بن ربيعة تخلفوا عن غزوة تبوك⁽¹⁾ .

إعداد الجيش - السرايا والمغازي :-
لم يكن للعرب في الجاهلية نظام خاص للجند ، لأنهم كانوا على حالة البداوة الأولى فكان رجال القبيلة يهبون للقتال مشاة وفرساناً بقيادة مشايخهم إذا ما دعوا للقتال حاملين أسلحتهم المعروفة في ذلك الوقت ، وهي السيف والرمح والقوس ، فإذا ما انتهى القتال عادوا إلى ديارهم وانصرفوا إلى أعمالهم ، ولما جاء الإسلام ألف بين قلوبهم وبدؤوا يقاتلون في سبيل نشره⁽²⁾ ، ولكون النبي محمد (ﷺ) قائداً للأمة الإسلامية ورئيساً للدولة ، كانت أمامه مهمات جسام ، فما كاد ينتهي من تنظيم أمور المدينة الداخلية وتعزيز الجبهة الداخلية ، كان أمامه مهمة المحافظة على المدينة نواة للدولة وقاعدة لنشر الإسلام وتوسيع رقعته ولمواجهة المخاطر في المدينة وما حولها من الأعداء فقد قام الرسول (ﷺ) بإعداد الجيش والمقاتلين المسلمين وتطوير كفاءتهم القتالية ، بحيث يجعلهم دوماً على استعداد طارئ وعملاً بقوله تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾⁽³⁾ .
وفي هذه الآية أمر صريح بإعداد الجيش للجهاد وتزويده بالة الحرب من سلاح وغير ذلك من رباط الخيل ووجوب النفقة عليه والحث عليها⁽⁴⁾ .

(1) الطبري ، تفسيره ، 58-57/11 .

(2) حسن إبراهيم حسن ، النظم الإسلامية ، ص 226 .

(3) سورة الانفال ، الآية : 60 .

(4) الطبري ، تفسيره ، 32/10 .

وحدث الرسول (ﷺ) على التدريب وعلى الرماية بالقوس والسهام بالخصوص واذم من تعلمه ثم نسيه ، وفي رواية عن عتبة بن عامر أن الرسول محمد (ﷺ) حين قرأ على المنبر قوله تعالى : (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة) قال : ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي (1) .

كما امتدح الرسول الخيول والعناية بها وإعداد الفرسان وكان يقول : (الخيول معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة ، الأجر والغنيمة) (2) .

وأمر (ﷺ) رسوله الكريم بصفته قائداً للمسلمين بإعدادهم وحثهم وإثارة روح الحماسة فيهم على القتال ، ففي معركة بدر كان الرسول يحرض المسلمين على القتال ويقول لهم : (شدوا عليهم) (3) لذلك فقد خوطب في القرآن الكريم : «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ» (4) .

وهذه الآية تلزم المقاتل المسلم ببذل طاقة قتالية تبلغ عشر مرات أكثر من الطاقة القتالية للمقاتل الكافر وبعبونه (ﷺ) وتأييده يتم النصر على الأعداء ، لأنهم المؤمنون وأعداؤهم الكافرون الذين وصفهم الله : (بأنهم قوم لا يفقهون) .

وكان الرسول الكريم (ﷺ) ينظم بنفسه جنوده في أرض المعركة مستخدماً نظام الصف ، وهو النظام الذي أحب (ﷺ) أن يقاتل به المسلمون في سوح المعارك كصفوف الصلاة المترصة: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي

(1) أبو داود ، سنن أبي داود ، 13/3 ؛ المنذري ، أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي ، (ت656هـ) ، الترغيب والترهيب ، ط1 ، تحقيق: إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، (بيروت-1417هـ) ، ج3 ، 1047 .

(2) البخاري ، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفي ، (ت256هـ) ، التاريخ الكبير ، تحقيق: السيد هاشم الندوي ، دار الفكر ، (د.م- د.ت) ، ج4 ، ص184 .

(3) ابن الوردي ، زين الدين عمر بن مظفر ، (ت749هـ) ، تأريخ ابن الوردي ، ط2 ، المطبعة الحيدرية ، (النجف-1969) ، ج1 ، ص153 ؛ وينظر الرسالة المتخصصة في مجال التنظيمات العسكرية ، اللهيبي ، ص52 .

(4) سورة الانفال ، الآية : 65 .

سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ
مَرْصُومٌ⁽¹⁾ .

والقتال راجلاً أحب إلى الله من القتال فارساً⁽²⁾ ، وربما يعود ذلك لندرة الخيول
وقلة امتلاك المسلمين لها ، فلم يكن بين جيش المسلمين في بدر مثلاً إلا فرس
واحدة وفي رواية أخرى ثلاث⁽³⁾ .

السرايا والمغازي :-

قام الرسول (ﷺ) بأول خطوة عملية لإعداد الجيش ، وهي تشكيل السرايا^(*)
، والتي عرفت في السنتين الأوليتين كانت عبارة عن حملات حربية صغيرة لا يقصد
بها حرب ، بل هي من أعمال الدوريات الحربية غرضها المحافظة على الحدود أو
الاستكشاف والاستطلاع ورصد الأعداء وكان الرسول يحيط هذه السرايا بالسرية ،
وكان يختار قادتها بنفسه مما يدل على معرفة كبيرة بمتطلبات العمل الاستطلاعي
من شجاعة وتضحية وجرأة وإخلاص .

وكانت بعض هذه السرايا ذات طابع هجومي لإيقاع الضرر بالعدو والانسحاب
بسرعة لاعتبارات عسكرية لأن الدافع الرئيس منها رد العدوان والسعي لحماية حرية
العقيدة ، وكان معظم هذه السرايا موجهاً ضد قوافل قريش⁽⁴⁾ ، وقد ساعد الموقع
الجغرافي للمدينة على طريق القوافل المسافرة من مكة إلى الشام على الإضرار
بمصالح قريش التجارية⁽⁵⁾ ، إذ لا يبعد الطريق أكثر من 13 كم ، فما كان على

(1) سورة الصف ، الآية : 4 .

(2) الطبري ، تفسيره ، 86/28 .

(3) ابن هشام ، السيرة ، ق1/666 .

(*) وهي تسمية أطلقها أصحاب المغازي والسير على حملات الرسول (ﷺ) وعملياته العسكرية فالحملات
التي قادها الرسول سميت غزوات ، أما التي عهد بها إلى غيره من الصحابة سميت بالسرايا . ينظر:

ابن سعد ، الطبقات ، 5/2-6 .

(4) الطبري ، تاريخ ، 472-402/2 .

(5) المصدر نفسه ، 472-402/2 .

المهاجمين من المسلمين إلا الاهتمام بالفرقة المرافقة للقوافل التجارية المكية ثم يعودوا أدراجهم بسهولة قبل ظهور أي جماعة للمساعدة^(*) .

وكذلك للضغط اقتصادياً على قريش لتغير موقفها من المسلمين ، وذلك كون التجارة عصب الحياة الاقتصادية لمكة⁽¹⁾ ، فتعمل على محالفة المسلمين مما يترك المجال مفتوحاً لدخول القبائل العربية في الإسلام دون حواجز وقيود ، وكذلك تقديراً لمكانة قريش المتميزة بين هذه القبائل⁽²⁾ .

وتشكل هذه القوافل كذلك تعويضاً للمهاجرين عما استولت عليه قريش من أموالهم عند الهجرة وعما تسببت لهم من أذى ، وبذلك تخفف من وطأة الضائقة الاقتصادية للمهاجرين في المدينة في بدء هجرتهم⁽³⁾ .

والهدف الأخير من هذه السرايا اراد بها الرسول استعراض قوة المسلمين أمام القبائل القاطنة قرب المدينة حتى يعزل قريش عن حلفائهم من هذه القبائل ، وحمل هذه القبائل على فك حلفها مع قريش والتحالف مع المسلمين الأقوياء وعدم التفكير بغزو المدينة ، فيذكر أن غزوة الابداء^(*) - وهي أول غزوة غزاها الرسول (ﷺ) بعد اثني عشر شهراً للهجرة⁽⁴⁾ بنفسه كان يريد قريش وبني ضمرة بن بكر بن مناة بن كنانة فوادعته فيها بنو ضمرة ، دون أن يحدث قتال بين الطرفين⁽⁵⁾ .

(*) وهذه الخطة مشابهة لخطة العرب القتالية في الصحراء وهي مفاجأة العدو بإعداد الكمائن له (الكر والفر) . ينظر: مونتجومري وات ، محمد في المدينة ، ص5 ؛ الشريف ، مكة والمدينة ، ص400 .

(1) الملاح ، الوسيط ، ص216 .

(2) ابن هشام ، السيرة ، ق1/643-644 .

(3) الملاح ، الوسيط ، ص216 .

(*) الابداء ، قرية من أعمال الفرع في المدينة بينها وبين الجحفة مما يلي المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً . ينظر: ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، 1/92 .

(4) ابن سعد ، الطبقات ، 2/8 ؛ ابن عبد البر ، الدرر ، ص103 .

(5) ابن هشام ، السيرة ، ق1/591 .

ويذكر الواقدي⁽¹⁾ ، أن مغازي النبي (ﷺ) التي غزاها بنفسه سبعاً وعشرين غزوة وإن السرايا سبعاً وأربعين سرية ، وفي رواية أخرى عن قتادة أن مغازي رسول الله (ﷺ) وسراياه ثلاث وأربعون ، منها أربع وعشرون سرية وتسع عشرة غزوة⁽²⁾ ، وهناك رواية تذكر أن الرسول (ﷺ) قاد خمساً وعشرين حملة بنفسه واسند خمساً وثلاثين منها إلى بعض الصحابة⁽³⁾ .

وكانت أول سرية للمسلمين قادها حمزة بن عبد المطلب في رمضان على رأس سبعة أشهر من مهاجرة النبي (ﷺ)⁽⁴⁾ ، ثم سرية عُبيدة بن الحارث بن المطلب ابن عبد مناف^(**) ، على رأس ثمانية أشهر من الهجرة على بعد عشرة أميال من الجحفة^(***) لاقوا أبا سفيان في مائتي راكب فحدث تراشق بالسهم لكن لم يحدث قتال ، فكان أول من رمى بسهم في الإسلام هو سعد بن أبي وقاص ، ثم سرية سعد ابن أبي وقاص قرب الجحفة في ذي القعدة في الشهر التاسع من هجرة رسول الله (ﷺ)⁽⁵⁾ ، ثم كانت غزوة الابداء ودان^(*) .

(1) محمد بن عمرو ، (ت207هـ) ، المغازي ، تحقيق: د. مارسدن جوسن ، (اكسفورد-1966) ، ج1 ، ص7 ؛ ابن سعد ، الطبقات ، 6/2 ؛ ابن هشام ، السيرة ، ق1/591 ، إلا أنه جعل غزوة الابداء قبل سرية حمزة ؛ اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، 33/2 .

(2) ابن كثير ، البداية والنهاية ، 242/3 .

(3) الحديثي ، د. نزار عبد اللطيف ، الأمة والدولة في سياسة النبي (ﷺ) والخلفاء الراشدين ، ط1 ، دار الحرية ، (بغداد-1987) ، ص155 .

(4) الواقدي ، المغازي ، 9/1 ؛ ابن سعد ، الطبقات ، 7/2 .

(**) بن قصي القرشي المطلب وأمه من ثقيف وكان أحد السابقين الأولين في الإسلام وهو أسن من رسول الله بعشر سنين ، وهاجر مع أخوه إلى المدينة وقد بارز رأس المشركين في يوم بدر . ينظر: الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، 256/1 .

(***) قرية كبيرة ذات منبر على طريق المدينة من مكة على أربع مراحل وسميت الجحفة لان السيل اجتمع فيها وحمل أهلها في بعض الأعوام وهي أول الغور إلى مكة . ينظر: ياقوت الحموي ، معجم البلدان 111/2 .

(5) الواقدي ، المغازي ، 11/1 ؛ ابن سعد ، الطبقات ، 7/2 .

(*) ذكرنا تفاصيلها في بداية موضوع السرايا ، أما الطبري فقد جعل غزوة الابداء في الشهر الثاني عشر من الهجرة مثل ابن هشام وابن سعد . ينظر: الطبري ، تاريخ ، 403/2-404 .

أما خليفة ابن خياط⁽¹⁾ ، فقد جعل غزوة الالبواء سنة اثنتين للهجرة ، ولكننا نرى أن الترتيب الذي وضعه الواقدي وابن سعد اقرب إلى الواقع وهي سرية حمزة ثم سرية عبيدة بن الحارث ثم غزوة ودان ، أما ابن الأثير⁽²⁾ ، فقد وضع سبب هذا الالتباس والاختلاف وذلك لتقارب الفترة الزمنية لعقد اللوائين حيث قال : (وقال بعضهم : كان لواء أبي عبيدة أول لواء عقد وإنما اشتبه ذلك لقرب بعضهما ببعض) .

الصراع مع قريش :-

غزوة بدر الكبرى :

كانت غزوة بدر^(*) التي اعز الله بها الإسلام وجنده في يوم الجمعة صبيحة يوم سبعة عشر من شهر رمضان في السنة الثانية من الهجرة⁽³⁾ .

كان قدوم أبي سفيان بن حرب من الشام بغير قريش تحمل تجارات وأموالاً لها كثيرة ، ونلمس ذلك في مقالة أبي سفيان : (ما بمكة من قريشي ولا قرشية له نشى فصاعداً إلا قد بعث به معنا)⁽⁴⁾ ، لهذا ترى تخوف أبي سفيان عليها من عيون المسلمين .

فلما بلغت العيون رسول الله (ﷺ) ندب المسلمين قائلاً : (هذه غير قريش فيها أموالهم لعل الله يُغنمكموها)⁽⁵⁾ .

فلما علم أبو سفيان بذلك أرسل إلى قريش يستنجدهم ، فخرج أهل مكة سراعاً ولم يتخلف من أشرافها إلا أبي لهب وقد بعث مكانه العاص بن هشام ،

(1) تاريخ ، 13/1-21 .

(2) الكامل في التاريخ ، 78/2 .

(**) بدر : كانت موسم من مواسم العرب يجتمع لهم به سوق كل عام ، وتكثر فيه الآبار . ينظر: ابن

هشام ، السيرة ، ق1/618 .

(3) المصدر نفسه ، ق1/626 ؛ المسعودي ، أبي الحسن علي بن الحسين بن علي ، (ت346هـ) ، مروج

الذهب ومعادن الجوهر ، ط3 ، تحقيق: محمد محي الدين ، (مصر-1958) ، ج2 ، ص295 .

(4) الواقدي ، المغازي ، 20/1 .

(5) المصدر نفسه ، 20/1 .

وكانت عدتهم تسعمائة وخمسين رجلاً ومعهم مائة فرس ومعهم القيان والدفوف⁽¹⁾ ، أما عدة المسلمين فكانت ثلاثمائة وبضع رجال ومنهم أربع وسبعون مهاجراً ومعهم سبعون من الإبل يتعاقبون عليها⁽²⁾ .

ويذكر انه أبطأ على رسول الله (ﷺ) الكثير من أصحابه حيث لم يظنوا حدوث قتال ، وحدث اختلاف وكلام كثير بينهم ، حيث يذكر الطبري⁽³⁾ ذلك قائلاً : (فخرجوا لا يريدون إلا أبا سفيان والركب معه لا يروا فيها إلا غنيمة لهم لا يظنون أن كبير قتال إذا لقوهم) .

وقد صور لنا (⇒) ذلك بقوله : «كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ، يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ، وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لَا⁽⁴⁾ ، وسار النبي (ﷺ) مع المسلمين حتى عرش قريباً من بدر وأرسل العيون للاستطلاع⁽⁵⁾ .

ثم نزل المسلمون بعد ذلك بالعدوة الدنيا أي شفير الوادي الأدنى إلى المدينة وأما المشركون فقد نزلوا بشفير الوادي الأقصى إلى مكة والعيير وأبو سفيان في موضع أسفل منهم إلى ساحل البحر خوفاً من الرصد⁽⁶⁾ ، وكان هذا اللقاء بدون

(1) ابن سعد ، الطبقات ، 12/2 .

(2) المصدر نفسه ، 12/2 ؛ الطبري ، تفسيره ، 187/9 ، وفي رواية يذكرها الطبري ، أن عدد المسلمين في معركة بدر كان ثلاثمائة وثلاثون رجلاً ، وفي رواية أخرى ، (305) رجلاً .

(3) تاريخ ، 421/2 .

(4) سورة الأنفال ، الآية : 5-7 ، ويقصد هنا بيتك : أي خروج النبي من المدينة إلى بدر ، والحق : أي القتال ، وكرهية المسلمين الخروج لأنهم كانوا يظنون إن خروجهم للعيير وليس للقتال ، وغير ذات الشوكة ، هنا العير ، والشوكة ، النصر في القتال ؛ الطبري ، تفسيره ، 182/9 .

(5) ابن هشام ، السيرة ، ق1/614-617 .

(6) ابن سعد ، الطبقات ، 5/2 ؛ الطبري ، تاريخ ، 422/2-423 .

سابق موعد ، ولو تواعدوا لاختلفوا في الميعاد ولكثرة عدد المشركين قياساً بالمسلمين⁽¹⁾ .

كما جاء في قوله تعالى : ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا...﴾ (2) .

وقوله تعالى واصفاً المشركين : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (3) .

ثم نزل المسلمون على أدنى ماء من بدر ، وأشار سعد بن معاذ على رسول الله (ﷺ) ببناء عريش يجلس فيه ، ثم أقبلت قريش ، ثم تزاحف القوم ، فدعا رسول الله (ﷺ) ربه قائلاً : (اللهم أن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض اللهم أنجز لي ما وعدتني ولم يزل كذلك حتى سقط رداؤه)⁽⁴⁾ .

وقد جسد (⇒) هذا الموقف بقوله : ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدَفِينَ ، وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (5) .

(1) الطبري ، تفسيره ، 187/9 .

(2) سورة الأنفال ، من الآية : 42 .

(3) سورة الأنفال ، الآية : 47 ، وهنا تحذير للمسلمين أن لا يكون خروجهم مثل المشركين رياء وطلباً للسمعة والتماس ما عند الناس ، ولا كانوا مع المشركين سواء بل يجب أن يخلصوا النية في نصره دينهم ونبيهم لا لشيء آخر ، الطبري ، تفسير ، 16/10 .

(4) ابن هشام ، السيرة ، ق/626 .

(5) سورة الأنفال ، الآية : 9-10 ؛ مردفين : أي متتابعين ، لكي تسكن قلوبكم بمجيئهم أي مدد الملائكة وتؤمن بالنصر من الله (⇒) ؛ الطبري ، تفسيره ، 194/9 .

وقوله تعالى : ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتُمْ إِذْ رَمَيْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (1) .

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رَجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ (2) .

حيث يلقي(٢) الذعاس على المسلمين في الحرب أمناً من الله لهم من عدوهم في الحرب ، وفي رواية عن ابن عباس أن المشركين من قريش لما خرجوا لينصروا العير ويقاتلون المسلمين نزلوا على ماء بدر فغلبوا المؤمنين عليه فأصاب المؤمنين الظمأ فجعلوا يصلون مجنبين محدثين حتى تعاظم ذلك عليهم وأحزنهم ووسوس الشيطان بذلك في قلوبهم ، فأنزل (٢) بلطفه ورحمته المطر فشرب المسلمون واغتسلوا واشتدت بهم الأرض واشتدوا عليها بعد نزول المطر ، لأنها كانت ارض بطحاء تدخل فيها أرجلهم ولعل موقعة بدر كانت الامتحان الأول لهذه الفئة القليلة من المؤمنين تبين فيها صدق إيمانهم وثباتهم على مبادئهم(3) ، كما أسفرت هذه الحرب على حيز التطبيق من احكام بشرعية وقواعد ثابتة يسيرون وفقها في حروبهم ، وعلى الأخص فيما يتعلق بالغنائم ومعاملة الأسرى ، وقد وضعت سورة الأنفال التي نزلت بهذه المناسبة أموراً كثيراً تخص الحرب والاستعداد لها ، والصبر والثبات فيها ، وفداء الأسرى وغيره(4) ، ومن ذلك قوله تعالى :-

1- ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ...﴾ (5) .

(1) سورة الأنفال ، الآية : 17 ، والبلاء الحسن هنا : الظفر بالأعداء وغنمة ما معهم ؛ الطبري ، تفسيره ، 205/9 .

(2) سورة الأنفال ، الآية : 11 .

(3) الطبري ، تفسيره ، 194/9 .

(4) د. تحسين حميد ، تكريم المحاربين ، العدد 32 ، ص 2 .

(5) سورة الأنفال ، من الآية : 60 .

2- ﴿... إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ
الْأَدْبَارَ﴾ (1) .

وفي التحذير من اعتبار الحرب مصدراً لتحقيق المكاسب المادية أو الذاتية
كما في قوله تعالى ﴿... تَرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ
الْآخِرَةَ﴾ (2) .

إن موقعة بدر على الرغم من قلة العدة والعدد - إذا ما قيسَت بمعارك العرب
الكبرى كالفدائية واليرموك وغيرها ، فإنها كانت بعيدة في معانيها ونتائجها ، حيث
أثبتت بالدليل القاطع أن التفوق العددي ليس بالضرورة لحسم الحرب لصالحها وإنما
النصر حليف المقاتلين الصابرين الأشداء حملة المبادئ المدافعين عن الحق
والعدل (3) .

3- ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ
قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ
الصَّابِرِينَ﴾ (4) .

4- ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (5) .

5- ﴿وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ
اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (6) .

(1) سورة الأنفال ، من الآية : 15 .

(2) سورة الأنفال ، من الآية : 67 .

(3) د. تحسين حميد ، تكريم المحاربين ، العدد 32 ، ص 2 .

(4) سورة البقرة ، من الآية : 249 .

(5) سورة آل عمران ، الآية : 123 .

(6) سورة الأنفال ، من الآية : 19 .

ومن الجدير بالذكر أن الإسلام في الوقت الذي كان يستعد للقتال لرد اعتداء أو إحباط اعتداء كان في الوقت نفسه يدعو إلى السلام كلما سنحت له الفرصة بذلك (1) .

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (2) .
وفي قوله تعالى : ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ...﴾ (3) .

وتذكر بعض الروايات أن مشركي مكة عند خروجهم لقتال المسلمين اخذوا بأستار الكعبة واستنصروا الله قائلين : (اللهم انصر اعز الجندين وأكرم الفتين وخير القبلتين) ، فكان جوابه (⇒) في معركة بدر بنصر النبي (Δ) وجنده (4) .

وقد سماها (⇒) بيوم الفرقان ، لأنها فرقت بين الحق والباطل وانتصر المسلمون في هذه المعركة بعون الله وإذنه . كما في قوله تعالى : ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (5) .
وانهزمت قريش وقتل العديد من صناديدها وخيرة رجالاتها (6) .

وقد التزم الإسلام في هذه المعركة والمعارك اللاحقة بقواعد الشرف والإنسانية ضد خصومه المنهزمين في المعارك فلم يتعرض للأبرياء من النساء والأطفال والشيوخ ، وعامل الأسرى بمنتهى الإنسانية كما في قوله تعالى : ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ (7) .

(1) د. تحسين حميد مجيد ، تكريم المحاربين ، العدد 32 ، ص 2 .

(2) سورة الأنفال ، الآية : 61 .

(3) سورة الأنفال ، من الآية : 19 .

(4) الطبري ، تفسيره ، 209/9 . في رواية عن السدي .

(5) سورة الأنفال ، من الآية : 41 .

(6) ابن هشام ، السيرة ، ق 708/1 .

(7) سورة الإنسان ، الآية : 8 .

كما لقي الجرحى من المشركين العناية نفسها التي لقيها جرحى المسلمين ذلك إن الإسلام لم يعتبر الحرب حالة طارئة ودائمة وغاية بحد ذاتها بقدر كونها حالة استثنائية ووسيلة لحماية المبادئ ، وخلق الجو الملائم لتأمين حرية الدعوة⁽¹⁾ ، واختلف المسلمون والصحابة في كيفية التعامل مع الأسرى قبل أن ينزل فيهم كتاب الله ، وعند مشاورة رسول الله للصحابة ، فقد أشار عمر بن الخطاب (◀) على رسول الله (Δ) بضرب رقابهم ، بينما أشار أبو بكر عليه بأخذ الفدية منهم لصلة الرحم معهم وعسى أن يهديهم الله لدينه ويكونوا عوناً له والاستعانة بالدية لتمويل الجيش⁽²⁾ ، فقام الرسول الكريم (Δ) إلى طلب الفدية والإبقاء على حياة الأسرى لأنها اقرب إلى نفسه وسماحة خلقه ، وأما من ليس له مقدرة على الفداء من الأسرى فمن عليهم الرسول الكريم بالعفو . كما في قوله تعالى : ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَتَّخِذَ فِي الْأَرْضِ ثَرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَوْ لَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ (3) .

ومن الآيات التي ورد ذكر الأسرى كما جاء في قوله تعالى : ﴿إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْنَتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوُثَاقَ فَاِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۖ (4) .

(1) تحسين حميد مجيد ، تكريم المحاربين ، العدد 32 ، ص 32 .

(2) ابن كثير ، البداية والنهاية ، 296/3-297 .

(3) سورة الأنفال، الآيات : 67-70 ، وهنا عتاب من الله لرسوله الكريم على أخذه الفداء ، ويبدو أن الله

(⇒) لا يريد أن يكون للمسلمين أسرى خاصة في هذه المرحلة من حياة الأمة وبناء الدولة وإنما

عليهم إيقاع أكبر عدد من الخسائر في صفوف الأعداء حتى يرهبهم وذلك لإعلاء كلمة الله سبحانه ؛

ابن هشام ، السيرة ، ق1/677 ؛ الملاح ، الوسيط ، ص 36 .

(4) سورة محمد ، الآية : 4 ؛ الطبري ، تفسيره ، 40/26 .

أما من يحسن من الأسرى القراءة والكتابة فعليه أن يعلم عشرة صبيان من المسلمين حتى يتم إطلاق سراحه ، وكان من جملة صبيان المسلمين زيد بن ثابت⁽¹⁾ ، وهنا تبرز أهمية أخرى لمعركة بدر والتي تعكس بعد النظر السياسي والحضاري للرسول (ﷺ) بعده قائداً سياسياً وتربوياً للدولة والأمة ، إذ لم ينسَ وهو في ظل هذه الظروف الافادة من معطيات هذه المعركة ولإدراكه أهمية العلم والمعرفة في بناء المجتمع الإسلامي الجديد ، ويكفينا دليلاً على ذلك إن أول سور القرآن نزلت تحت على العلم والتعلم وقد وردت آيات كثيرة فيما بعد فيها أدوات وأفعال التعليم مثل : (اقرأ^(*)) ، يكتبون ، يسطرون ، البيان ، علم ، يعلمون ، يعقلون ، يتفقهون ، وغيرها) ، وكان المسجد مركزاً للتعليم حيث كان يجلس فيه الرسول والصحابة والمسلمون للتفقه بأمور دينهم .

ومن القواعد الأساسية التي نزلت بها سورة الأنفال هي في كيفية توزيع الغنائم بصورة عامة وتوزيع غنائم بدر بصورة خاصة والتي أصبحت منهاجاً يسير عليه المسلمون فيما بعد كما في قوله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا

(1) الواقدي ، المغازي ، 119/1 ؛ ينظر ابن سعد ، الطبقات ، 22/2 ؛ وتم الترجمة لحياة زيد بن ثابت ضمن موضوع الجهاز الإداري لحكومة الرسول (ﷺ) .

(*) ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ⇒ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ⇒ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ⇒ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ⇒ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ سورة العلق ، الآية : 1-5 ، وسورة البقرة الآية : 30 ، 44 ، وسورة الطور ، الآية : 1-3 ، وهذه بعض الأمثلة ولولا أهمية التعليم في الإسلام لما أذن سبحانه وتعالى بتخلف طالب العلم عن الجهاد للاستمرار في التفقه في الدين كما في سورة التوبة الآية : 122 : ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ .

اللَّهُ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ⁽¹⁾ ، وعن سبب نزول هذه الآية وفي رواية عن عبادة بن الصامت قال عن الأنفال : إنها نزلت فينا أصحاب بدر حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله من أيدينا فجعله إلى رسول الله ، قسمه (Δ) بيننا عن بواء أي سواء⁽²⁾ ، ويذكر القرطبي⁽³⁾ : إن المسلمين يوم بدر كانوا ثلاث طوائف ، فئة تثبت مع الرسول لحمايته ، وفئة قاتلت العدو ، وفئة جمعت الغنائم ، ولهذا حصل النزاع لأن كل فرقة ادعت إنها أحق بالنفل من

غيرها ، وفي هذه الآية دعوة إلى التصالح وعدم التنزع وإرجاع الأمور في هذه المسائل لله ورسوله ، ثم انزل (⇒) قوله : «وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»⁽⁴⁾ .

وقد أجاب القرآن عن هذه التساؤلات بعد أن جعل أمر الأنفال بيد الرسول (Δ) ، وأوضح كيفية توزيعها .

غزوة أحد :- في شوال سنة ثلاث للهجرة :-

(1) سورة الأنفال ، الآية : 1 ، والأنفال : هي الزيادة على الشيء ولذا يطلق النفل والنافلة على التطوع لزيادة الفريضة وتطلق الأنفال على الأموال التي لا مالك لها من رؤوس الجبال وبطون الأودية والقرى التي أباد أهلها وعلى غنائم الحرب والظفر على الأعداء والأموال التي غنمها المقاتلون والأسرى . ينظر: ابن سلام ، الأموال ، ص18 ؛ والطباطبائي ، تفسير الميزان ، 2/9 ؛ وينظر عفيفي ، محمد صادق ، المجتمع الإسلامي وفلسفته المالية والاقتصادية ، دار الكتاب الجديد ، (د.ت-1980) ، ج2 ، ص252.

(2) ابن هشام ، السيرة ، ق1/642 .

(3) تفسيره ، 360/7 .

(4) سورة الأنفال ، الآية : 41 .

بعد انهزام قريش ومقتل خيرة رجالاتها في معركة بدر ، أصبحت أكثر تصميماً على قتال المسلمين والأخذ بالثأر منهم ، ولاستعادة هيبتها بين القبائل العربية وجعلوا أرباح القافلة التي نجت من أيدي المسلمين لتجهيز هذه الحملة كما جاء في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ (1) .

((فخرجت قريش بحددها وحديدها واحابيشها^(*) ، ومن تبعها من بني كنانة ، وأهل تهامة وخرجوا معهم بالضعن التماس الحفظة وألا يفروا)) (2) ، في ثلاثة آلاف رجل فيهم سبعمائة دارع ، ومعهم مائتا فارس وثلاثة آلاف بعير ، وقائدهم أبو سفيان بن حرب مصطحباً زوجته هند بنت عتبة ، وساروا من مكة ونزلوا قرب المدينة في موضع يسمى بعينين ، بجبل ببطن السبخة على شفير الوادي مقابل المدينة ، فلما سمع بهم رسول الله (ﷺ) جمع المسلمين وشاورهم في أمر الخروج أو البقاء في المدينة لملاقاة قريش⁽³⁾ ، وبناءً على رأي الأكثرية استعد الرسول والمسلمون وخرجوا من المدينة لملاقاة الأعداء وكان تعداد جيش المسلمين نحواً من ألف من الصحابة وصاروا بين المدينة وأحد فانخذل عنهم ابن أبي بن سلول^(**) في ثلث الناس بدعوى أن الرسول لم يأخذ بمشورته قائلاً : - أطاعهم وعصاني علام

(1) سورة الأنفال ، الآية : 36 .

(*) الاحابيش : هم بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة والهون ابن خزيمه بن مدركة ، وبنو المصطلق من خزاعة تحالفوا جميعاً بواد يقال له الاحبش أسفل مكة فسموا بهذا الاسم نسبة إليه . ينظر: ابن هشام ، السيرة ، ق1 / 373 .

(2) ابن هشام ، السيرة ، ق61/2 .

(3) ابن سعد ، الطبقات ، 36/2 .

(**) هو عبد الله بن أبي بن سلول العوفي : سيد أهل المدينة عندما قدمها رسول الله (ﷺ) وكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملكوهم عليهم فجاءهم الله برسوله (ﷺ) فدخلوا به ودخله كارهاً مصر على نفاقه وطعنه . ينظر: ابن هشام ، السيرة ، ق585/1 .

نقتل أنفسنا ورجع بمن تبعه من أهل النفاق⁽¹⁾ ، ويذكر أن طائفتين من المسلمين همتا ولم تفعل عندما شاهدوا عبد الله بن أبي بن سلول ينحاز وهما بالانصراف ولكنهم لم يفعلوا وهم بنو سلمة وبنو حارثة⁽²⁾ .

كما في قوله تعالى : ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾⁽³⁾ ، وقام الرسول (ﷺ) ينظم مقاتليه للقتال كأنما يقوم بهم القداح إن رأى صدرًا خارجاً قال تأخر⁽⁴⁾ ، وجعل للجيش ميمنة وميسرة⁽⁵⁾ .

كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾⁽⁶⁾ .

وقد وعد (ﷺ) المسلمين عند خروجهم إلى احد انه سوف يمدهم بالملائكة أن صبروا واثقوا كما في قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ ﴾ ⇒ بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسؤمين⁽⁷⁾ .

ويذكر الواقدي⁽⁸⁾ قائلاً : فلم يصبروا وانكشفوا فلم يمد رسول الله (ﷺ) بملك واحد يوم احد ، ونشب القتال بين المسلمين والمشركين وكانت الغلبة في بادئ

(1) المصدر نفسه ، ق 65/2 .

(2) الطبري ، تفسيره ، 419/4 .

(3) سورة آل عمران ، الآية : 122 .

(4) الواقدي ، المغازي ، 319/1 .

(5) ابن سعد ، الطبقات ، 40/2 ؛ كما في قوله تعالى في سورة الصف ، الآية : 4 ((إِنَّ اللَّهَ يُجِيبُ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُومٌ)) ، وكان يصفهم صفوف متراصة كصفوف الصلاة .

(6) سورة آل عمران ، الآية : 121 ؛ والتبوءة اتخاذ الموضع ؛ الطبري ، تفسير ، 416/4 .

(7) سورة آل عمران ، الآية : 124-125 ؛ الواقدي ، المغازي ، 319/1-320 .

(8) المغازي ، 320/1 .

المعركة للمسلمين ، وقتل أصحاب اللواء من المشركين ، فانكشفوا منهزمين لا يلوون على شيء ونسأؤهم يدعون بالويل وتبعهم المسلمون يضعون السلاح فيهم ، واختلف الرماة الذين وضعهم الرسول خلف المسلمين فثبت أميرهم عبد الله بن جبير في نفر قليل في موضعهم ونزل الباقيون لجمع الغنائم ظنهم إن المعركة قد انتهت ، وكان يرقبهم من بعيد خالد بن الوليد فكر بالخيال يتبعه عكرمة بن أبي جهل فحملوا على من بقي من الرماة فقتلوه⁽¹⁾ ، واختلط المسلمون وأصبحوا يقاتلون على غير شعار ويضرب بعضهم بعضاً وقتل مصعب بن عمير حامل لواء الرسول (Δ) ، وقتل حمزة عم الرسول (Δ) على يد وحشي^(*) ، وقد صورة (⇒) تصويراً بليغاً لمجريات الأحداث بدأ بالفوز ثم الانهزام بسبب الاختلاف ومخالفة الرماة لأوامر الرسول (Δ) ، كما جاء في قوله تعالى : «وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَارَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تَحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ⇒ إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَلُوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ فَأَتَابَكُمْ عَمَّا بَغِمَ لَكُمْ لِيَكُونَ تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ⁽²⁾ .

(1) ابن سعد ، الطبقات ، 41/2 .

(*) وهو غلام بن جبير بن مطعم ، يسمى وحشي ، وكان حبشياً يقذف بحربه له قذف الحبشة فلما يخطئ بها فقال جبير اخرج مع الناس فان قتلت عم محمد بعمي طعيمه بن عدي فأنت عتيق . ينظر: الطبري ، تاريخ ، 501/2 ؛ الجاحظ ، أبي عثمان عمرو بن بحر ، (ت255هـ) ، رسائل الجاحظ ، ط1 ، تحقيق: حسن السندوبي ، المطبعة الرحمانية ، (مصر-1933) ، ص59 .

(2) سورة آل عمران ، الآية : 152-153 ؛ الذين يريدون الدنيا : أي الغنيمة والذين يريدون الآخرة هم الذين أطاعوا أوامر الرسول وبقوا في مواضعهم على الجبل . ينظر: الطبري ، تفسير ، 124/4-129 ؛ الطبري ، تاريخ ، 509/2 ؛ الواقدي ، المغازي ، 323/1 ، ثم صرف عن المشركين حين كانت الدولة لكم عليهم والابتلاء هنا ليرجع المشركون فيقتلوا من قتلوا منهم ويجرحوا من جرح منهم ، وهنا تصعدون في الجبل هاربين ، والغم الأول القتل والجراح حين تفرعهم المشركون ، وغما بغم : أي بلاء على اثر بلاء ؛ الطبري ، تفسيره ، 472/4-475 .

ومما زاد في انهيار معنويات المسلمين وخذلانهم في المعركة إشاعة كانت قد انتشرت بين المسلمين إن الرسول قد قتل ، ولا داعي للاستمرار في الحرب .
لذلك فقد عاتبهم الله ووبخهم في القرآن وخاطبهم : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (1) .

وقد خاطب الله رسوله في : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (2) .
وبلغت خسائر المسلمين في هذه المعركة خمسة وستين شهيداً ، أربعة منهم من المهاجرين ، والبقية من الأنصار (3) ، أما قتلى المشركين في هذه المعركة بلغ اثنين وعشرين رجلاً (4) ومع هذه النسبة تصبح الغلبة والنصر لقريش على المسلمين ، وقد تعامل الرسول الكريم بحكمه لتجاوز الأزمة فغفى عن فر ولم يلق بتبعة الخسران على احد كما في قوله تعالى : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ...﴾ (5) .

ونزل القرآن مواسياً ومخففاً عنهم هذه المصيبة كما في قوله تعالى : ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾
→ ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ

(1) سورة آل عمران ، الآية : 144 ؛ ابن سعد ، الطبقات ، 42/2 .

(2) سورة آل عمران ، الآية:128 ؛ الآية 127 من نفس السورة ؛ ابن هشام السيرة ، ق2/80 ؛ ولمزيد

من الإطلاع ينظر ابن سعد ، الطبقات ، 45/2 .

(3) ابن هشام ، السيرة ، ق2/122-127 .

(4) المصدر نفسه ، ق2 / 126-129 .

(5) سورة آل عمران ، من الآية : 159 .

آمَنُوا وَيَتَّخِذْ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ لَا (1)

انتهت معركة احد بدرس بليغ وعظة كبيرة للمسلمين لاسيما إن أمامهم درباً طويلاً للجهاد والكفاح مستنبطين منه ضرورة تمسك وإطاعة أوامر الرسول وتوجيهاته ، وإنهم في ظل هذه الظروف بأمر الحاجة إلى التكاتف والتعاون لمواصلة مسيرتهم ، وليهون (⇒) الأمر على المسلمين خاطبهم بقوله تعالى :
﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (2) .

إن من أسمى معاني وغايات الجهاد هو الحصول على احد الحسينين ، هو النصر أو الشهادة وكان المسلمون يتسابقون لنيلها ، وقد وعد الله المقاتلين بالأجر والذكر الحسن في الدنيا وبنعيم الآخرة لمن ينالها فقد جاء في السيرة أن المسلمين بعد أن أصيبوا في موقعة احد جعل الله أرواح الشهداء في اجواف طير خضر ترد انهار الجنة وتأكّل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش فلما وجدوا طيب مشروبهم ومأكلهم وحسن مقيلم قالوا : يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا لئلا يزهدون في الجهاد ولا ينجسوا (أي لا يرجعوا) عن الحرب (3) .

فقال الله : وأنا ابلغهم عنكم فأنزل الله على رسوله : ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (4) ، وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ⇒ فَرَحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (5) .

(1) سورة آل عمران ، الآية : 139-140 ؛ الآيات ، 141-142 ؛ الواقدي ، المغازي ، 321/1 .

(2) سورة آل عمران ، الآية : 166 .

(3) السيرة ، ابن هشام ، ق/2 ص 119-120 ؛ الواقدي ، المغازي ، 325/1 ؛ الطبري، تفسيره ، 513/4 .

(4) سورة البقرة ، الآية : 154 .

(5) سورة آل عمران ، الآية : 169-170 ؛ الطبري، تفسير ، 38/2 ؛ ابن كثير، البداية والنهاية ، 45/4 .

يقول ابن هشام⁽¹⁾ في السيرة النبوية عن ابن إسحاق : (انه مما انزل الله تبارك وتعالى في يوم أحد من القرآن ستون آية من آل عمران ، فيها صفة ما كان في يومهم ذلك ومعاتبة من كاتب منهم) .

فما كان اليوم التالي جمع رسول الله (ﷺ) المسلمين على الرغم من جراحاتهم وجدوا في طلب قريش وتبعوا المشركين إلى حمراء الأسد التي تبعد ثمانية أميال عن المدينة⁽²⁾ ، ليرى الناس أن المسلمين مازال بهم قوة على عدوهم ، وقد اثنى الله عليهم بقوله تعالى : ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾⁽³⁾ .

وحتى لا تستغل هذه الهزيمة في إضعاف الجبهة الداخلية من اليهود والمنافقين ، لكن المنافقين ومعهم اليهود استغلوا خسارة المسلمين في احد وبدأوا يظهرن سخريتهم وشماتتهم بالمسلمين والرسول (ﷺ) فقالوا : (ما محمد إلا طالب ملك ، ما أصيب هكذا بنبي قط ، أصيب في بدنه ، وأصيب في أصحابه)⁽⁴⁾ .

وقد أجاب القرآن الكريم عن هذه الفئة المنافقة التي تخلت عن الرسول في المعركة وسخر منهم في قوله تعالى : ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾⁽⁵⁾ .

غزوة الخندق :- في شوال سنة خمس للهجرة :-

(1) السيرة ، ق/2-106-122 .

(2) الواقدي ، المغازي ، 326/1-327 ؛ الطبري ، تفسيره ، 519/4 .

(3) سورة آل عمران ، الآية : 172 .

(4) الواقدي ، المغازي ، 317/1 .

(5) سورة آل عمران ، الآية : 167 .

لقد كانت هذه الغزوة المحاولة الأخيرة التي قامت بها قريش لإنهاء الوجود الإسلامي .

وقد اختمرت فكرة تأليب العرب على المسلمين في يثرب في نفوس يهود بني النضير ولم يدخروا وسعاً من حيله ومكر ومال في التحريض ضد المسلمين وخاصة بعد إجلاء يهود بني النضير⁽¹⁾ ، فخرجوا إلى مكة ودعوا قريشاً لحرب المسلمين ، ويبدو أن قريشاً كانت مترددة في دخول هذا الحلف بعد أن ملت الحرب واتبعتها الحصار الاقتصادي الذي فرضه المسلمون على طرق تجارتها ، ويظهر ترددها من خلال الأسئلة التي طرحتها على اليهود⁽²⁾ ، فسألوهم بصفاتهم أهل كتاب وعلم هل ديننا خير أم دين محمد ، فكان جواب اليهود كما في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً ﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً⁽³⁾ .

فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب ومعها قبيلة غطفان وسليم وبني سعد ومعهم بني مرة وأشجع⁽⁴⁾ ، فلما سمع المسلمون بهم فزعوا لهذا الأمر ، إذ لم تكن المدينة تملك من القوة ما تستطيع به مواجهة هذه الحشود الكبيرة من قريش وحلفائها وقد بلغ تعدادهم عشرة آلاف مقاتل .

أما المسلمون فقد بلغ تعدادهم ثلاثة آلاف مقاتل ، وقد نزلوا جاعلين جبل سلع إلى ظهورهم ، والخندق بينهم⁽⁵⁾ ، وقد جاء في كتابه العزيز : ﴿ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ

(1) الواحدي ، الوجيز ، 859/2 ؛ ابن كثير ، تفسيره ، 859/2 .

(2) ابن هشام ، السيرة ، ق2/220 ؛ ابن كثير ، تفسيره ، 470/3 .

(3) سورة النساء ، الآية : 51-52 .

(4) ابن هشام ، السيرة ، 215/2 .

(5) المصدر نفسه ، ق2/220 ؛ ابن كثير ، تفسيره ، 470/3 .

الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ
الظُّنُونًا (1) .

ومن فوق منكم (المشرق) يعني قريظة والنضير ، ومن أسفل منكم قريش من
ناحية مكة ، وزاغت الأبصار أي مالت وشخصت ، لشدة الأمر وصعوبته
عليهم ، والذين يظنون الظنون هم المنافقون ، حيث ظنوا أن المسلمين سوف
يستأصلون وأيقن المؤمنون بنصر الله (2) ، أما يهود بني قريظة وكان لهم حصن
شرقي المدينة ولهم عهد مع النبي (Δ) وذمة ، وهم قريب من ثمانمائة مقاتل
أقنعهم

حيي بن اخطب النضري بعد جدل طويل بنقض عهدهم مع الرسول
وان يدخل الأحزاب من جهتهم المدينة (3) ، فلما علم المسلمون ذلك
اشتد الخطب عليهم وقد صور (⇒) خطورة الموقف في قوله
تعالى: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا
شَدِيدًا﴾ (4) ، أي اختبروا ليعلم المخلصين من المنافقين (5) .

وقد فضح الله في كتابه العزيز المنافقين في غزوة الخندق .
﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ
مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (6) .

كما فضح المترددين والمتخاذلين من الأنصار حيث تذرعوا بالرجوع إلى
المدينة لحماية بيوتهم من السرقة والعدوان مخاطباً لهم (7) : ﴿وَإِذْ قَالَتْ

(1) سورة الأحزاب ، الآية : 10 .

(2) الواحدي ، الوجيز ، 859/2 .

(3) ابن هشام ، السيرة ، ق2/220 ؛ ابن كثير ، تفسيره ، 470/3 .

(4) سورة الأحزاب ، الآية : 11 .

(5) ابن كثير ، تفسيره ، 470/3 .

(6) سورة الأحزاب ، الآية : 12 ، حيث وعدهم عند حفر الخندق إن فارس والروم يفتحان عليهم ؛ ابن

هشام ، السيرة ، ق2/22 ؛ الواحدي ، الوجيز ، 860/2 .

(7) ابن هشام ، السيرة ، ق2/222 ؛ ابن عبد البر ، الدرر ، ص183 ، وتذكر إحدى الروايات الذي قال

هذا القول هو متعب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف .

طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا
وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا
عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا⁽¹⁾ .

وفي قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا
يُؤْلَوْنَ الْأَذْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا²﴾ . ولكن الله (ﷻ) يثني
على المؤمنين الصابرين عندما رأوا الأحزاب وكثرتهم فلم يزداهم ذلك إلا أيمانا
وتصديقا بوعد الله ورسوله وقضائه ونصره⁽³⁾ .

كما جاء في قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ
قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ
وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا⁽⁴⁾﴾ .

فأقام رسول الله (ﷺ) (Δ) والأحزاب بضعا وعشرين ليلة قريبا من الشهر ولم يكن
حرب إلا الرمي بالنبل والحصار ، وانسحبت قريش وحلفاؤها وردت خائبة لم تجن
شيئا من حربها : ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ
يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ
قَوِيًّا عَزِيزًا⁽⁵⁾﴾ .

وقد لعبت الدبلوماسية في غزوة الخندق دورا رئيسا في تفريق الأحزاب وكان
للظروف الطبيعية القاسية التي أضرت بالمشركين سبب آخر لخسارتهم حيث هبت
عليهم ريحٌ عاتية اقتلعت خيامهم واكفأت قدورهم⁽⁶⁾ ، كما في قوله تعالى :
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ

(1) سورة الأحزاب ، الآية : 13 ؛ الطبري ، تفسيره ، 37/21 .

(7) سورة الأحزاب ، الآية : 15 .

(3) ابن هشام ، السيرة ، ق2/219 .

(4) سورة الأحزاب ، الآية : 22 .

(5) سورة الاحزاب ، الآية : 25 .

(6) الطبري ، تأريخ ، 573/2 .

إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (1) .

يعد إخفاق الأحزاب في حملتهم على المدينة ، نهاية للمرحلة الأولى من سعي الرسول (ﷺ) لتوحيد العرب تحت راية الإسلام أما المرحلة الثانية فأولها صلح الحديبية وأخرها فتح مكة (2) .

وقد وضعت موقعة الخندق نهاية للصراع بين المسلمين وقريش ، حيث أظهرت عجزها ، ولم تفكر بحرب أخرى بعد ذلك وأصبحت الكفة في صالح المسلمين وبدأت المدينة تتحرك نحو مكة وليس العكس حتى عقد صلح الحديبية ، وهي أول وثيقة مدونة يعقدها الطرفان المتحاربان لنهاية هذا الصراع الطويل .

الصراع مع اليهود : - الحوار الفكري والمواجهة العسكرية

بنو النضير - قينقاع - قريظة - خيبر
عند هجرة الرسول (ﷺ) إلى المدينة لم يظهر اليهود أي تدخل ، ولم يبدو اعتراضاً ولا موقفاً عدائياً اتجاه الرسول (ﷺ) وإنما لقي ترحيباً وقبولاً حيث اعتقدوا أن مجيء الرسول إلى المدينة ربما يكون في مصلحتهم ، وأنهم قد يستطيعون استمالته والتحالف معه وخصوصاً أن هناك تشابهاً كبيراً وقواسم مشتركة في جوهر معتقدات اليهودية والإسلام وأنه بتحالفه معهم ربما يستطيعون أن يكونوا وحدة في الجزيرة العربية تقف بوجه النصرانية التي أخرجتهم من الشام (3) ، لهذا رحبوا بالمسلمين المهاجرين وبالرسول (ﷺ) حين مقدمه ، ورد عليهم الرسول بالمثل وأحسن المعاملة وتقرب إلى رؤسائهم باعتبارهم أصحاب كتاب موحدين إلى أن حولت القبلة قبل بدر بشهرين إلى الكعبة (4) ، كما في قوله تعالى : «أَقْدُ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ

(1) سورة الأحزاب ، الآية : 9 .

(2) الطيباوي ، محاضرات ، ص 14 .

(3) الشريف ، مكة والمدينة ، ص 437 .

(4) ابن سعد ، الطبقات ، 24/1 .

وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا
وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ
أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ⁽¹⁾ .

ولكن يبدو إنهم أعادوا حساباتهم مرة أخرى لما رأوا تنامي قوة الرسول
والمسلمين وخطورة التعاليم والمبادئ الإسلامية في تحريم الربا ومنع الاستغلال
فأحسوا إن هذا ليس بمصلحتهم وحتى بعد أن وادعهم الرسول وعاهدهم واقرهم على
دينهم وأموالهم⁽²⁾ ، ولم يطلب منهم أكثر من التزامهم جانب الحياد في غزواته على
أن ينصروه إذا ما دهم المدينة عدو⁽³⁾ ، لقد حاول رسول الله (ﷺ) استمالتهم
وهديهم إلى الطريق القويم دون إجبارهم في الدخول في الإسلام بشتى طرق التفاوض
والنقاش ، إلا انه أدرك (ﷺ) طبيعة اليهود وبهتهم وتكذيبهم للأنبياء والمرسلين⁽⁴⁾ ،
حقيقة لا يمكن تغييرها^(*) .

ولكي يحافظ النبي (ﷺ) على وحدة المدينة كنواة للدولة الإسلامية وقاعدته ،
كان عليه أن يواجه المخاطر والعقبات التي تهدده في الداخل وعلى رأسها اليهود
الذين يناصبون الرسول (ﷺ) العداء والبغضاء فقد اخذوا يشنون حرباً شعواء ، من
الأسئلة والجدل في أمر الرسول وصحة رسالته ليلبسوا الحق بالباطل وقد نزل القرآن
الكريم في بعض آياته مجيباً عن أسئلتهم داحضاً ادعاءهم وموبخاً إياهم كما في
قوله تعالى : ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْهِمْ
كِتَاباً مِنْ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ
فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ
ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ
الْبَيِّنَاتُ... لا⁽⁵⁾ .

(1) سورة البقرة ، الآية : 144 .

(2) ابن هشام ، السيرة ، ق1/501 ؛ الطبري ، تاريخ ، 2/479 .

(3) ابن هشام ، السيرة ، ق1/503-504 .

(4) ابن كثير ، البداية والنهاية ، 3/4 .

(*) وسنورد في فصل عناصر السكان موضوعاً خاصاً عن اليهود في المدينة ، ص173 .

(5) سورة النساء ، من الآية : 153 .

وقوله تعالى : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (1) وقد تزعم حملة التشكيك والتآمر زعمائهم وأخبارهم (2) .

وكان أسباب هذه العداوة على حد قول ابن إسحاق (بغياً وحسداً وضغناً لما خص الله تعالى به العرب من أخذه لرسوله منهم) (3) .

لذلك فقد دخل الرسول (ﷺ) معهم في أول مرة حواراً فكرياً وقد جاء ذكر بعضه في القرآن الكريم كقوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (4) .

وقال اليهود لرسول الله (ﷺ) يا محمد ، ما جئتنا بشيء نعرفه ، وما أنزل الله عليك من آية فنتبعك لها (5) ، فأُنزل الله تعالى في ذلك قوله : ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ (6) .

وقد رد عليهم (ﷺ) موبخاً إياهم أيضاً : ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (7) .

(1) سورة الإسراء ، الآية : 85 ؛ وقد سأله عن ذي النون وذوي القرنين وأصحاب الكهف ؛ الطبري ، تفسيره ، 155/15 .

(2) ابن هشام ، السيرة ، ق1/501-503 ؛ وقد أورد قائمة بأسماء زعماء وأخبار اليهود ضد الإسلام ؛ ابن سيد الناس ، عيون الأثر ، 197/1 .

(3) ابن قيم الجوزية ، محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي ، (ت751هـ) ، زاد المعاد في هدى خير العباد ، تحقيق: شعيب وعبد القادر الاناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، (بيروت-1986) ، 65/3 .

(4) سورة البقرة ، الآية : 91 .

(5) ابن هشام ، السيرة ، ق1/548 .

(6) سورة البقرة ، الآية : 99 .

(7) سورة البقرة ، الآية : 89 .

وبعد فشل الحوار الفكري والطرق السليمة التي اتبعها الرسول مع اليهود اضطر إلى اللجوء إلى الخيار العسكري ، وكان بنو قينقاع أول من نقض العهد وظهروا الحسد والبغي⁽¹⁾ .

وقد حاول الرسول نصحهم وتحذيرهم ولكنهم ازدادوا عناداً وبغياً وظهروا استعدادهم للحرب فحاصروهم النبي (ﷺ) خمس عشرة ليلة حتى نزلوا على حكمه ، فأجلاهم إلى اذرعات^(*) بالشام⁽²⁾ .

وغنم منهم سلاحاً كثيراً وآلة صياغتهم⁽³⁾ ، لأنهم لا يمتلكون أراضٍ زراعية فانزل بهم (ﷻ) قوله على لسان رسوله (ﷺ) : «قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُخْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ»⁽⁴⁾ . وكذلك قوله تعالى : «كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»⁽⁵⁾ .

أما بنو النضير : فقد ظلوا يعيشون بأمان في ظل العهد الذي عقده مع رسول الله (ﷺ) ولكنهم لم يستمروا على ذلك ، ففي السنة الرابعة للهجرة تأمروا على اغتيال النبي (ﷺ) ، ولما علم بذلك أمر المسلمين بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم حتى نزل بهم وحاصروهم فتحصنوا في حصونهم⁽⁶⁾ ، وتعد سورة الحشر من السور التي انزلها (ﷻ) على رسوله الكريم وفيها تصوير موجز وبلغ عما انزل الله بهم من نعمة كما في قوله تعالى : «هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ

(1) ابن هشام ، السيرة ، ق/1/510 .

(*) اذرعات : بلد في أطراف الشام يجاور أراضي البلقاء وعمان . ينظر: ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، 162/1 .

(2) الواقدي ، المغازي ، 177/1-180 .

(3) الطبري ، تاريخ ، 2/479 .

(4) سورة آل عمران ، الآية : 12 ، ابن هشام ، السيرة ، ق/2/47 .

(5) سورة الحشر ، الآية ، 15 ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، 3/4 .

(6) ابن هشام ، السيرة ، ق/2/190-191 ؛ ابن سعد ، الطبقات ، 2/57 ؛ الطبري ، تفسير ، 28/29 .

أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ (1) .

وكان تخريبهم لبيوتهم ، حيث كان الرجل منهم يهدم بيته وعتبة بابه ويضعها على ظهر بعيره فينطلق به (2) ، وألقى (⇒) الرعب في قلوبهم من المسلمين واخذوا في الجهاز فبينما هم على ذلك إذ جاءهم رسول عبد الله بن أبي بن سلول وفي رواية جاء بنو النضير بنفسه فقال لهم : (اثبتوا وتمنعوا فانا لن نسلمكم إن قوتلتم قاتلنا معكم وإن أخرجتم خرجنا معكم) (3) ، وقد صور لنا الوحي ما دار من حوار بين هؤلاء المنافقين : «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ» (4) .

ويبدو من خلال هذه الآية أن المنافقين واليهود كانوا جبهة واحدة داخل المدينة ضد المسلمين وأمر رسول الله (ﷺ) بقطع النخيل والتحريق ليس فساداً في الأرض وإنما عقاباً كما في قوله تعالى : «مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ» (5) .

فلما رأوا أنهم لا طاقة لهم بالمقاومة طلبوا الصلح ، وسألوا رسول الله (ﷺ) أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة ، فنزل القسم الأكبر منهم في خيبر وذهب آخرون إلى اذرعات من حيث أتوا (6) ، كما

(1) سورة الحشر ، الآية : 2 .

(2) ابن هشام ، ق 2/190-192 ؛ البلاذري ، فتوح البلدان ، ص 25؛ الطبري ، تفسيره ، 27/28.

(3) ابن هشام ، السيرة ، ق 2/192-193 .

(4) سورة الحشر ، الآية : 11 ؛ ينظر أيضاً الآية : 12-13 من سورة الحشر تصف هؤلاء المنافقين .

(5) سورة الحشر ، الآية : 5 ، واللينة يعني النخلة الصغيرة ؛ الطبري ، تفسيره ، 33/28 .

(6) ابن هشام ، السيرة ، ق 2/191 ؛ ينظر الطبري ، تفسيره ، 28/28 .

في قوله تعالى : ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (1) .

وبعد خذلان الأحزاب وانسحابهم من المدينة ، قرر الرسول التخلص من بني قريظة أيضاً وذلك لتآمرهم على المسلمين وخيانتهم للعهود (2) ، بعد أن حكم فيهم سعد بن معاذ وقد نفذ بهم الرسول قصاصه العادل جزاءً على خيانتهم وقد جاء تفصيل ذلك في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ⇒ فِيمَا تَثَبَّقْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ⇒ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ (3) .

فإذا خفت من عدو بينك وبينهم عهد أن يغدروا بك فناجزهم بالحرب وأعلمهم قبل حربك إياهم أنك فسخت عهدك معهم بسبب ظهور أسباب الغدر والخيانة (4) .

﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ⇒ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّأُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ (5) .

(1) سورة الحشر ، الآية : 6 ؛ فكانت اموال بني النضير مما أفاء الله ورسول ولم يوصف المسلمون

عليها بخيل أو ركاب ، فكانت خالصة لرسوله ؛ القرطبي ، تفسيره ، 13/18 .

(2) ابن سلام ، الأموال ، ص100 ؛ هارون ، عبد السلام ، تهذيب السير لأبن هشام ، دار سعد ،

(القاهرة-1955) ، 301/2 .

(3) سورة الأنفال ، الآية : 56-58 .

(4) الطبري ، تفسيره ، 26/10 .

(5) سورة الأحزاب ، الآية : 26-27 ، وصياصيهم : أي حصونهم ، وهو كل ما يمتنع به ، وقيل القصور

لأنه يتحصن بها ؛ ابن منظور ، لسان العرب ، 474/14 .

غزوة خيبر(*) :-

بعد التخلص من يهود بني قريظة لم يعد لليهود نفوذ في المدينة وأصبحت السيادة المطلقة في مجتمع المدينة للمسلمين ولسلطة الرسول (ﷺ) غير أن اليهود الذين أجلاهم الرسول من بني قريظة وبني النضير تجمعوا في حصون خيبر اليهودية التي تقع على بعد مائة ميل باتجاه الشمال ، وأصبحوا يمثلون خطراً على المسلمين بسبب استمرارهم على التآمر والتحريض ، لذلك قرر الرسول (ﷺ) التخلص من هذه البؤرة التي تهدد دولة المدينة .

فبعد رجوع الرسول (ﷺ) من الحديبية تفرغ لمواجهة اليهود في خيبر ، وحاصرهم في جماد الأول سنة سبع للهجرة⁽¹⁾ ، وقد أراد الكثير من الأعراب ممن تخلفوا عن الحديبية المشاركة في فتح خيبر طمعاً في مغانمها ولكن الرسول (ﷺ) رفض ذلك لان مغانمها وعد الله بها المسلمين الذين شاركوا في الحديبية⁽²⁾ فقال رسول الله (ﷺ) : (لا يخرجن معنا إلا راغب في جهاد)⁽³⁾ وقد صور هؤلاء الطامعين بقوله تعالى : ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (4) .

(*) خيبر : هي مدينة غنية بمزروعاتها من بساتين النخيل والحبوب ، ولهم معاهدات مع يهود فذك ووادي

القرى وقيماء . واهم حصونهم السلالم والقموص والنظاة والقصارا والشق والمرابطة . ينظر :

الواقدي ، المغازي ، 610-609/2 ؛ ابن هشام ، السيرة ، ق 331/2 .

(1) ابن سعد ، الطبقات ، 106/2 .

(2) الطبري ، تفسيره ، 80/26 ؛ ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، 147/2 .

(3) ابن سعد ، الطبقات ، 106/2 .

(4) سورة الفتح ، الآية : 15 ، الغنيمة : هي كل ما حصل عليه المسلمون من الأعداء غنوة وقهراً عن

طريق القتال وهي النفل أو غنائم المسلمين في معركة بدر وتقسم حسب ما جاء في سورة الأنفال ؛

الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ص 137 .

ونزل رسول الله (ﷺ) في الرجح ليحول بين غطفان في إعانة خيبر لأنها
 مظاهره لهم على المسلمين⁽¹⁾ ، وحاصر المسلمون خيبر وفتحوها حصناً حصناً ،
 فكانت مما فتح المسلمون عنوة⁽²⁾ ، وصالحهم رسول الله (ﷺ) على نصف
 ثمارها⁽³⁾ ، وكذلك مع يهود فدك وتيماء ووادي القرى⁽⁴⁾ ، كما جاء في قوله تعالى :
 ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ
 وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ
 السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا
 آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا
 وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾⁽⁵⁾ .
 أي ما أخذتموه عنوة من مشركي أهل الكتاب ، فيقسم على هذه الأصناف
 المذكورة في الآية حتى لا يكون دولة يتداولها الأغنياء بينهم⁽⁶⁾ .

(1) ابن هشام ، السيرة ، ق 330/2 .

(2) المصدر نفسه ، ق 330/2 .

(3) ابن سلام ، الأموال ، ص 110 .

(4) الواقدي ، المغازي ، 706/2 ؛ البلاذري ، فتوح البلدان ، ص 41-43 .

(5) سورة الحشر ، الآية : 7 ، والغني هو كل كال وصل من المشركين عفواً من غير قتال ولا ايجاف خيل

ولا ركاب ؛ الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ص 126 .

(6) الطبري ، تفسيره ، 39/28 .

الفصل الخامس

الخطوات والمراحل الأخيرة في وحدة الجزيرة والخضوع لدولة المدينة :-

صلح الحديبية (*) :-

خرج الرسول (ﷺ) في ذي القعدة سنة ست للهجرة (أي في السنة التي تلت موقعة الأحزاب) معتمراً لا يريد حرباً في ألف وأربعمائة من المسلمين وفي رواية ألف وستمائة⁽¹⁾ ، واستنفر الرسول العرب ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه ، فأبطأ عليه كثير من الأعراب كعادتهم معتذرين⁽²⁾ ، وخرج معه فقط بدو خزاعة⁽³⁾ ، ويذكر أن سبب دعوة الرسول الأعراب على الرغم من عدم إسلامهم ، ليشعر قريش أنه جاء معتمراً وليس محارباً وأن فريضة الحج مقدسة عند المسلمين كما هي عند سائر العرب⁽⁴⁾ .

وقد وصف القرآن الكريم الأعراب بأنهم قوم لا خير فيهم وكشف زيف اعتذارهم المبني على النفاق وليس عن نية صادقة⁽⁵⁾ ، كما في قوله تعالى :

(*) الحديبية وهي اقرب حدود الحرم الى مكة . ينظر: ابن هشام ، السيرة ، ق/2/310 .

(1) المصدر نفسه ، ق/2/308 .

(2) الطبري ، تفسيره ، 118/26-120 .

(3) ابن هشام ، السيرة ، ق/2/308 ؛ مونتجومري/وات ، محمد في المدينة ، ص 69 .

(4) الشريف ، مكة والمدينة ، ص 461 .

(5) الطبري ، تفسيره ، 78/26-79 .

«اسْأَلُوا لَكُمْ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبيراً» (1) .

وقد اعلم (⇒) نبيه الكريم السبب الحقيقي لعدم خروجهم مع النبي كما في قوله تعالى : «بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزَيَّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنَّ السَّوءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً» (2) .

فلما سمعت قريش بخروج النبي (⇒) اجتمعوا رأيهم على صده عن المسجد الحرام وجهزوا قوة من مائتي فارس إلى كراع الغيم لرد المسلمين ، فبعث رسول الله قوة من المسلمين لردهم فردوهم إلى حيطان مكة ثلاث مرات (3) ، كما جاء في قوله تعالى : «وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً» (⇒) هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفِياً أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّأُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ» (4) .

وذلك أن كف الله أيدي المشركين من أهل مكة عن أهل الحديبية ، واليهدي محبوس أن يصل محل نحره في البيت الحرام (5) ، وكان في مكة رجال ونساء مؤمنين لم يعلمهم المسلمون ولو دخلوا مكة في ذلك العام لوطنتهم خيلهم بغير علم فتصيبهم من ذلك معرة ، فردهم الله عن مكة من أجل ذلك ، وأرسل الرسول (⇒) عثمان بن عفان (◀) إلى أبي سفيان وأشراف قريش ليعرفهم إن المسلمين لم يأتوا

(1) سورة الفتح ، الآية : 11 .

(2) سورة الفتح : الآية : 12 .

(3) الطبري ، تاريخ ، 623/2 ؛ وفي رواية أن الرسول سلك طريقاً غير طريقهم .

(4) سورة الفتح ، الآية : 24 ، ومن الآية : 25 ؛ الطبري ، تاريخ ، 622/2 ؛ الطبري ، تفسير ، 94-90/26 .

(5) الطبري ، تفسيره ، 107-90/26 .

لحرب وإنما جاءوا زائرين ومعظمين لهذا البيت ، فحبسته قريش⁽¹⁾ ، فبلغ رسول الله أنه قتل ، فقال : لا نبرح حتى نناجز القوم ودعا (⇨) إلىبيعة الرضوان تحت شجرة سمرة وقد بايع المسلمون على أن لا يفروا فنزل الوحي على رسول الله (⇨) يبلغه برضا الله عن المبايعين لما علم من صدق نيتهم ووفائهم ، فانزل عليهم الطمأنينة والثبات على دينهم وسيعوضهم (⇨) عن فتح مكة بفتح قريب ، وهو خير⁽²⁾ ، كما في قوله تعالى : ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾⁽³⁾ .

أما قريش فقد أرسلت سهيل بن عمرو لعقد الصلح فأجاب (⇨) بالقبول وحدثت المفاوضات ، وتوصلوا إلى عقد وثيقة بالصلح ، ولكنهم اختلفوا في صياغة بعض فقراتها ، وقد اظهر الرسول (⇨) في هذا الصلح مرونة سياسية كبيرة على الرغم من اعتراض بعض الصحابة ، متوهمين بأن الرسول قد أبدى بعض التنازلات إلى قريش ، ومن ذلك ما كتب في بداية الصحيفة (بأسمك اللهم بدلاً من بسم الله الرحمن الرحيم) ، ومحمد بن عبد الله بدلاً من محمد رسول الله ، لذلك فقد رد الرسول على المعارضين بأن اسمي واسم أبي لا يذهبان بنبوتي⁽⁴⁾ ، كما في قوله تعالى : ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾⁽⁵⁾ .

وهي كلمة لا اله إلا الله واستكبر عنها المشركون يوم الحديبية⁽⁶⁾ ، وقد سجل القرآن الكريم أحداث صلح الحديبية وظروف عقدها ووعدهم فيها بفتح مكة والنصر

(1) المصدر نفسه ، 107-100/26 .

(2) الطبري ، تفسيره ، 89-88/26 .

(3) سورة الفتح ، الآية : 18 .

(4) اليعقوبي ، تاريخ ، 41/2 .

(5) سورة الفتح ، الآية : 26 .

(6) الطبري ، تفسيره ، 103/26 .

القريب ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾ (1) .

وهي الرؤيا التي أراها الله لرسوله الكريم بدخوله المسجد الحرام ، وقد بشر الرسول بها أصحابه ، فكان صلح الحديبية بحق نصراً مبيناً ، كونه حق هدنة مع أقوى أعدائه لمدة عشر سنوات ، ضمنت له حرية العمل والحركة لنشر الدعوة الإسلامية وعقد المحادثات واكسب المسلمين مكانة وسمعة في أرجاء الجزيرة العربية .

ويذكر الواقدي (2) قائلاً : إن الهدنة على الرغم من قصرها إذ لم يطل أمدها من توقيعها حتى نقضها اثنين وعشرين شهراً ولكن كانت أهميتها ونتائجها عظيمة إذ دخل الإسلام في كل ناحية من نواحي العرب ، ومنهم قبيلة خزاعة التي كانت تشكل جزءاً رئيساً من جيش الاحابيش التي تحمي مكة ، ودخول هذه القبيلة بحلف مع المسلمين ضمن جزء كبير من هذه القوة إلى جانبه واضعف بذلك مركز قريش الحربي إلى حد كبير (3) ، وكذلك اسلم الكثير من شباب قريش وشجعانها وقد نزل القرآن معبراً عن أهمية هذا الصلح في قوله تعالى : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾ (4) .

تعدّ هذه المعاهدة في حقيقتها نصراً للإسلام ، فقد قبلت قريش أن تعامل النبي (ﷺ) الذي فر من وجهها منذ ست سنوات معاملة النظير وان تعترف بسلطانه السياسي والديني بدليل وضع شروط في المعاهدة تضمن حرية المرور إلى الشام ، ووضع شرط آخر يضمن حرية زيارة الكعبة ، أما ما يظهر من الإجحاف في الشرط

(1) سورة الفتح ، الآية : 27 .

(2) المغازي ، 624/2 .

(3) ابن هشام ، السيرة ، ق/312 ؛ الشريف ، مكة والمدينة ، ص 469 .

(4) سورة الفتح ، الآية : 1 ، وفي رواية عن الزهري يذكر إن هذه الآية نزلت على رسول الله (ﷺ) في

طريق عودته من مكة إلى المدينة ؛ الطبري ، تفسره ، 143/15 .

التي تحتم على النبي (ﷺ) أن يرد من جاء من قريش راغباً في الإسلام ، دون إذن من وليه على أن لا ترد قريش من جاءها من أصحاب محمد (ﷺ) مرتدّاً ، فوجه الحكمة فيه أن محمداً (ﷺ) كان يتذرع بالصبر والسياسة والأيمان بالله ، للوصول إلى غرضه وإن يثق بأصحابه ، ويتأكد أن واحداً منهم لم يرجع إلى المشركين ، وإن رجع من رجع فلا نفع للمسلمين في أمثاله (1) .

فتح مكة :-

في العام الثامن من الهجرة دخلت قريش وبعدها ثقيف وغيرها من القبائل الإسلام وأصبحت المدن الحجازية الثلاث (مكة والطائف والمدينة) نواة لدولة الإسلام الجديدة ، والتي مهدت إلى انتشاره فيما بعد في كافة ربوع الجزيرة العربية وأخضعت المرتدين بعد وفاة الرسول (ﷺ) .

كان حلم العودة إلى مكة يراود خيال النبي والمهاجرين على الرغم من اندماجهم في مجتمع يثرب الجديد ، وكان صلح الحديبية الذي عقدته قريش مع المسلمين قد جدد الأمل في إمكانية تحقيق ذلك ، خصوصاً وإن الله في كتابه العزيز قد وعدهم بالنصر والفتح القريب ، إلا أن هذا النصر القريب الذي كان ينتظره المسلمون سوف لا يتحقق إلا بعد عشر سنوات ، بعد انقضاء مدة الهدنة التي عقدت بين الطرفين المتحاربين .

ولكن لم يمضِ على الهدنة أكثر من سنتين حتى نقضت قريش هذه المعاهدة (2) ، حين نصرت حليفها قبيلة بكر على حليفة النبي قبيلة خزاعة (3) ، لذلك فقد عدَّ النبي أن مدة الهدنة قد ألغيت وعزم على دخول مكة ، وطلب من المسلمين التهيؤ والاستعداد للحرب ، فكتب حاطب بن أبي بلتعة وهو احد المسلمين المكيين المهاجرين محذراً قومه قريش ومعلماً إياهم بالأمر (4) ، ولكن الرسول علم بالرسالة

(1) الطيباوي ، محاضرات ، ص 15 .

(2) الواقدي ، المغازي ، 624/2 .

(3) ابن سعد ، الطبقات ، 134/2 ؛ الازرقعي ، أخبار مكة ، 146/2 .

(4) الطبري ، تأريخ ، 49-48/3 .

واسترجعها قبل وصولها ووبخ صاحبها ، وقد جاء القرآن الكريم ليسجل هذه الحادثة وفيها يحذر المسلمين من موالاة الأعداء الكفار على إخوانهم المسلمين ، كما في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (1) .

ففرغت قريش من جيش الفتح وهو يقترب من مشارف مكة ، وندمت على نقضها المعاهدة وهرعت إلى أبي سفيان لمعالجة الأمر ، وقد توصل أبو سفيان مع الرسول (ﷺ) إلى حل سلمي (2) ، وهو دخول المسلمين إلى مكة مقابل العفو العام لأهلها ، وقد وفى الرسول بهذا العهد ، حين خاطبهم : (اذهبوا فأنتم الطلقاء) (3) .

وبذلك أصبحت الرؤيا التي رآها الرسول قبل سنتين حقيقة كما وعده الله تعالى في قوله : ﴿الْقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (4) .

كان لفتح مكة نتائج وآثار سياسية ودينية كبيرة ، بعيدة المدى ، ذلك أن مكة كانت تمثل اكبر مركز للوثنية في الجزيرة العربية ، كما كانت قريش تمتلك الثروة والسطوة والتأثير على القبائل ، وان خضوعها لدولة الرسول في المدينة أعطى للمسلمين أهمية ومكانة كبيرة ، وكسر حاجز الخوف عند القبائل المترددة في الدخول إلى الإسلام ، ولعل من الجدير ذكره حول فتح مكة أن الأنصار وهم عرب اليمن القحطانية كان لهم رأي آخر في معاملة قريش العدنانية ، إذ كان في نيتهم

(1) سورة الممتحنة ، الآية : 1 .

(2) ابن هشام ، السيرة ، ق/2/403 .

(3) ابن سعد ، الطبقات ، 2/137 .

(4) سورة الفتح ، الآية : 27 ؛ الطبري ، تفسير ، 3/332 .

أن ينتقموا من كفار قريش ويستبيحوا مكة ثأراً لقتلهم في بدر وأحد وغيرها من المعارك⁽¹⁾ ، ولكن الرسول وكثير من المهاجرين كانوا يفضلون الحلول السلمية مع أهلهم وعشيرتهم ومدينتهم وكان يعز عليهم تدميرها واستباحتها وفيها بيت الله الحرام .

وتتجلى في هذا الفتح سياسة النبي (ﷺ) بأوضح صورها ، ففي الناحية الدينية لم يكن هناك مجال للمساومة أو هوداه ، فمحمد رسول الله يدعو إلى التوحيد وتحطيم الوثنية ومظاهرها ، وقد نفذ ذلك على أتم وجه .

أما من الناحية السياسية المدنية فقد تجلى التسامح واصطناع الناس بأجلى مظاهره ، فأعداء الأُمس أصبحوا بفضل هذه السياسة أتباع اليوم وأعداء الغد ، فأبوا سفیان هذا قد سار مع النبي (ﷺ) بعد أسبوعين من فتح مكة محارباً مع صفوف المسلمين وقد أعطاه رسول الله (ﷺ) كما أعطى سائر الأشراف من المؤلفة قلوبهم^(*) نصيباً وافراً من الغنائم ، حتى ألج بعض الأنصار في الاحتجاج على هذا التسامح والاصطناع مع أعداء الإسلام بالأمس⁽²⁾ ، وبدؤوا يتخوفون من بقاء الرسول (ﷺ) في المدينة وربما كانوا يظنون انه سيترك يثرب ويستغني عنهم ويستقر في مكة .

لذلك فإن الرسول عالج الموضوع بحكمة ودبلوماسية وبدد مخاوفهم قائلاً : (معاذ الله المحيا محياكم ، والممات مماتكم)⁽³⁾ ، ورجع معهم الى المدينة قاطعاً كل الأقاويل بعد أن أمر بتحطيم جميع الأصنام والأوثان وإزالة الصور والرسوم .

(1) ابن هشام ، السيرة ، ق2/406 - 415 ، حيث تذكر الروايات أن سعد بن عبادة قال عند دخوله مكة : (اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمه) .

(*) والمؤلفة قلوبهم : كما يذكر ابن اسحاق : (كانوا اشرافاً من اشراف الناس ، يتألفهم ويتألف بهم قومهم) فقد اعطاهم الرسول من الغنائم ما يتناسب ومكانة كل واحد منهم في قومه ، والخدمات التي قدمها للمسلمين او التي يتوقع منه ان يقدمها ؛ ولمزيد من التفاصيل ومعرفة اسماء هؤلاء ينظر ابن هشام ، السيرة ، ق2/492 ؛ وينظر ، ابن حبيب ، المحبر ، ص473-474 .

(2) عبد اللطيف الطيباوي ، محاضرات ، ص16 .

(3) ابن هشام ، السيرة ، ق2/416 .

الطائف (حُنين) (*) :-

بعد انتهاء الرسول (ﷺ) من فتح مكة عزم على التوجه الى الطائف وهي ثالث مدينة كبرى في الحجاز وإحدى القريتين الموعلة بالوثنية ، كما في قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (1) ، وفيها مصالح قريش واستثماراتهم الزراعية ، ولم يمض أكثر من أسبوعين على فتح مكة حتى حدثت معركة حنين في ثمان مضت من شوال سنة 8هـ ذلك أن قبائل هوازن وثقيف التي كانت تقيم قريباً من مكة وتملك الطائف عدت فتح مكة ضربة موجة لها ثم سيأتي دورها بعد ذلك (2) ، واعدت هوازن وثقيف عدتها وحشودها ونزلوا بوادي اوطاس من حنين ، أما الرسول (ﷺ) فقد خرج إليهم في اثني عشر ألفاً من المسلمين ، عشرة آلاف من أهل المدينة وألفان من مكة ومنهم بعض المشركين (3) ، وقد فاجأت هوازن جيش المسلمين في وادي حنين بهجوم مباغت انهزم فيها المسلمون وتركوا الرسول (ﷺ) مع فئة قليلة من صحبه المؤمنين الذين ثبتوا في المعركة ونادى رسول الله (ﷺ) وعمه العباس المسلمين الفارين فعادوا للتجمع حول الرسول (ﷺ) وانزل (ﷺ) الأمن والطمأنينة على رسوله والمسلمين وحولوا الهزيمة الى نصر بعد أن أعجبهم كثرتهم في البدء وظنوا أن لا غالب لهم (4) ، وفي ذلك يخاطب الله (ﷻ) المسلمين ويشخص مواطن الضعف فيهم : ﴿الْقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مَّدْبَرِينَ﴾ (5)

(*) حنين : هو وادي الى جنب ذي المجاز وبين هذا الوادي ومكة ثلاث ليال . ينظر: الطبري ، تاريخ ، 70/3 ؛ ابن الوردي ، تاريخ ابن الوردي ، 175/1 .

(1) سورة الزخرف ، الآية : 31 .

(2) ابن سعد ، الطبقات ، 150/2 .

(3) المصدر نفسه ، 150/2 .

(4) الطبري ، تفسيره ، 104/10 .

(5) سورة التوبة ، الآية : 25 .

فكان درساً آخر للمسلمين يستخلصون منه العبر والدروس وهو أن الغلبة لا تكون بالكثرة وإنما تكون بالمؤمنين الصابرين ولا تكون الغلبة إلا بتأييد الله ونصره كما نصرهم في المعارك السابقة ، وعذب الذين كفروا وجحدوا وحدانيته ورسالته ورسوله الكريم بالقتل والسبي وسلب الأموال والإذلال⁽¹⁾ ، وقد رسم لنا القرآن الكريم صورة معبرة لهذه الأحداث كما في قوله تعالى : «إِثْمَ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ»⁽²⁾ .

وتحصن من فر من المعركة من ثقيف وهوازن في الطائف فحاصرهم رسول الله (ﷺ) بضعة وعشرين يوماً⁽³⁾ ، ثم جاء بعد ذلك وفدهم معلناً إسلامه ، فرد عليهم الذرية والنساء ، وكذلك فعل الأنصار والمهاجرون⁽⁴⁾ ، كما في قوله تعالى : «إِثْمَ يَثُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ»⁽⁵⁾ .

غزوة تبوك(*) :-

بعد أن توحدت مدن الحجاز ودانت القبائل العربية طوعاً أو كرهاً ، فكر الرسول (ﷺ) أن يمد نفوذ دولة الإسلام الى خارج الجزيرة العربية خصوصاً وان الإسلام دين عالمي جاء للعالم كافة وللعرب خاصة كما في قوله تعالى :

(1) الطبري ، تفسيره ، 104/10 .

(2) سورة التوبة ، الآية : 26 .

(3) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ص 49 ؛ الطبري ، تفسيره ، 104/10 .

(4) ابن حبيب ، المحبر ، ص 473 ؛ ابن قتيبة ، المعارف ، ص 149 .

(5) سورة التوبة ، الآية : 27 .

(*) وهي منطقة شمال شبه الجزيرة العربية ويقال هو موضع بين وادي القرى والشام ، وقيل هو بركة لأبناء سعد من بني عذرة ، وكانت تحت نفوذ الإمبراطورية البيزنطية ، ويعتبر الجيش الذي جهزه الرسول في هذه الغزوة أضخم جيش جهزه الرسول . ينظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، 14/2 ؛ مونتجومري/ وات ، محمد في المدينة ، ص 674 .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (1) .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (2) .

واختلف المؤرخون العرب في الأسباب الحقيقية لهذه الحملة فالواقدي يقول :
إن السبب في ذلك وصول الأخبار إلى الرسول بتجمع الروم مع قبائل لخم وغسان
وجذام وعاملة ، وتحشدهم في البلقاء لغزو المسلمين (3) .

في حين يذكر اليعقوبي (4) سبباً آخر وهو المطالبة بدماء من استشهد في
معركة مؤتة(*)، ففي السنة التاسعة من الهجرة أمر النبي بالتجهيز لغزو الروم
وسمي هذا الجيش بجيش العسرة كما جاء في قوله تعالى : ﴿قَدْ تَابَ اللَّهُ
عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي
سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ
مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (5) .

وتذكر الروايات أن الناس في الجذب الذي أصاب البلاد والحر الشديد والناس
في عسر الماء والزاد حتى كان الرجال يشقان التمرة بينهما (6) .

ولهذا تاب الله عليهم ، واقرن ذلك بطيب الثمار وحب الناس في أن يقيموا
في ثمارهم وظلالهم . فعاقبهم (⇒) بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ

(1) سورة سبأ ، الآية : 28 .

(2) سورة الأنبياء ، الآية : 107 .

(3) الواقدي ، المغازي ، 990/3 .

(4) تاريخ اليعقوبي ، 51/2 .

(*) غزوة مؤتة : وهي أول غزوات المسلمين ضد الروم استشهد فيها ثلاث قادة من المسلمين وبلغ تعداد
جيش المسلمين ثلاثة الاف مقاتل ، والروم مائة الف مقاتل وانتهت بانسحاب المسلمين بقيادة خالد
بن الوليد ، ومؤتة موضع من ارض الشام دون دمشق . ينظر: البكري ، معجم ما استعجم ،
172/4 .

(5) سورة التوبة ، الآية : 117 .

(6) ابن هشام ، السيرة ، ق516/2 ؛ ابن كثير ، تفسيره ، 357/2 .

إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ⁽¹⁾ .

وبعث رسول الله (ﷺ) إلى القبائل وإلى مكة يستنفرهم إلى هذه الغزوة وحث رسول الله (ﷺ) المسلمين على القتال والنيل من أعداء الله من الروم وحث (ﷺ) المسلمين على النفير والخروج في المنشط والمكره والعسر واليسر شباباً

وشيوخاً⁽²⁾ ، كما في قوله تعالى : ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾⁽³⁾ ، وتأهب الرسول (ﷺ) لهذه

الغزوة ، وجاءه المعذرون من الأعراب ، فاعتذر إليه ويقال أنهم نفر من بني غفار ليؤذن لهم فلم يعذرهم الله تعالى⁽⁴⁾ ، قال تعالى : ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾⁽⁵⁾ .

وحدث الرسول (ﷺ) أهل الغنى على النفقة ، فانفق كل بحسب طاقته وحتى الضعفاء من المسلمين أيضاً ساهموا ، ولم يسلم احد من لزم المنافقين في نفقتهم سواء كان غني أم فقير أعابوا عليه ، فوبخهم (ﷺ) أشد توبيخ وتوعدهم بعذاب

الليم ، كما في قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ

(1) سورة التوبة ، الآية : 38 .

(2) ابن كثير ، تفسيره ، 359/2 .

(3) سورة التوبة ، الآية : 41 . ينظر: محمد ، محمد مصطفى ، الفهرس الموضوعي لآيات القرآن ، مطبعة الأوقاف ، (بغداد-1983) ، ص348-350 .

(4) الواقدي ، المغازي ، 991-993/3 ؛ الطبري ، تاريخ ، 102/3-103 .

(5) سورة التوبة ، الآية : 90 ، ونلاحظ في سورة التوبة وبهذه الغزوة يأمر (ﷺ) بجهاد المنافقين بالسان والكفار بالسيف حيث كان رسول الله (ﷺ) قبل ذلك يعفو عنهم . ينظر: سورة التوبة : الآية 73 ، كما في قوله تعالى : ((يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَبِئْسَ الْمَصِيرُ)). ينظر: محمد مصطفى ، الفهرس الموضوعي ، ص350 .

فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ⁽¹⁾ ،
 وجاءت سورة التوبة^(*) لتصور لنا أحداث هذه الغزوة وظروفها تصويراً معبراً عن أدق
 المواقف والظروف وخاصة ادعاءات المنافقين وكما يبدو لنا أن في هذه الغزوة برز
 المنافقون بنفاقهم⁽²⁾ والتي أرادها الله (⇒) أن تكون اختباراً لصدق إيمان المؤمنين
 وفضح زيف من يدعون الإيمان ويتسترون وراءه ، هؤلاء المنافقين المحسوبين
 على الإسلام ، كما يصفهم (⇒): «إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ
 تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ
 وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ⁽³⁾ .

ومنهم الجد بن قيس والذي تخلف أيضاً عن بيعة الرضوان ، فبينما النبي
 (ﷺ) يتجهز لهذه الغزوة قال للجد بن قيس يا جد هل لك في جلد بني الأصفر ؟
 فقال يا رسول الله أوتأذن لي ولا تفتني ؟ لشدة إعجابه بالنساء⁽⁴⁾ ، كما في قوله
 تعالى : «وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي
 الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ⁽⁵⁾ . أي
 فتنة النساء التي كانت يخشاها ليست اكبر من تخلفه عن رسول الله وجهاد
 عدوه⁽⁶⁾ .

فضح كذب إدعائه وبطلانه ، ويبدو لنا كثرة المتخلفين في هذه الغزوة وكانت
 حججهم واهية كما تذكر لنا الروايات ولا يكفيهم هذا بل كانوا يحرضون الناس على

(1) سورة التوبة ، الآية : 79 .

(*) ينظر سورة التوبة من الآية : 41-118 ؛ محمد مصطفى ، الفهرس الموضوعي ، ص 348-350 ؛
 ونلاحظ أن ثلثي هذه الآيات تصف حال المنافقين وأقوالهم وأفعالهم إلا الآيات 41 ، 45 ، 72 ، 73 ،
 89 ، 117 ، 118 .

(2) ابن قتيبة ، المعارف ، ص 149-150 ؛ حيث أورد قائمة بأسماء المنافقين المتخلفين عن غزوة
 تبوك .

(3) سورة التوبة ، الآية : 50 .

(4) ابن هشام ، السيرة ، ق 516/2 ؛ الواقدي ، المغازي ، 992/3 .

(5) سورة التوبة ، الآية : 49 .

(6) الطبري ، تفسير ، 148/10-149 .

عدم النفي في هذه الغزوة بسبب الحر وشكاً منهم في الحق وارجافاً برسوله وهؤلاء لا يرجون ثواب الآخرة⁽¹⁾ ، كما في قوله تعالى : ﴿أَفَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ لَا⁽²⁾ .

وأيضاً من أقوال المنافقين ومنهم وديعة بن ثابت الذي قال : - ما لي أرى قراءنا هؤلاء أرغبنا بطوناً واكذبنا أسنة وأجبنا عند اللقاء⁽³⁾ فعلم رسول الله بما قالوا فجاءوا رسول الله معتذرين فانزل (﴿﴾ قوله فيهم : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ لَا⁽⁴⁾ .

وجاء المنافقون الى النبي (﴿﴾ يستأذنه من غير علة فأذن لهم ، وكانوا بضعة وثمانين ، وكانوا يظنون أن الرسول (﴿﴾ لن يرجع إليهم أبداً⁽⁵⁾ وقد اتهم هؤلاء بأن الرسول أذن أن يصدق كل ما يقال له فإذا حلفنا له صدقنا⁽⁶⁾ ، كما في قوله تعالى : ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ . . . لَا⁽⁷⁾ ، وقد سار هذه المرة أيضاً عبد الله بن أبي بن سلول مع الرسول في غزوة تبوك ، لكنه كرر فعله في غزوة احد حيث انسحب هو والمنافقون ومعه حلفاء من اليهود⁽⁸⁾ ، ويذكر أن أصحاب مسجد الضرار جاؤوا رسول الله أثناء ذهابه

(1) ابن كثير ، تفسيره ، 375/2-377 .

(2) سورة التوبة ، الآية : 81-82 .

(3) الواقدي ، المغازي ، 1003/3 .

(4) سورة التوبة ، الآية : 65 .

(5) الواقدي ، المغازي ، 995/3 ؛ المقرئ ، أمتع الأسماع ، 439/1 .

(6) ابن كثير ، تفسيره ، 366/2 .

(7) سورة التوبة ، من الآية 61 ، ينظر أيضاً سورة التوبة ، الآية : 65-66 تصف ذلك حتى إنهم لمزوا

رسول الله (﴿﴾ في الصدقات ، الآية : 58 .

(8) ابن سعد ، الطبقات ، 165/2 .

إلى الغزو ليبارك لهم مسجدهم فاعتذر منهم حتى يرجع من غزوه ، وفي أثناء عودة النبي (ﷺ) من تبوك تعرض لأخطر محاولات المنافقين استهدفت هذه المرة اغتياله في جنح الليل عن طريق مؤامرة اتسمت بالمكر والغدر ، وظنوا أن يقتلهم الرسول الكريم (ﷺ) ينتهي

الإسلام ، ولكن (ﷺ) كشف مؤامرة العقبة لرسوله الكريم ، ويروى أن النبي (ﷺ) قال لحذيفة أن الله اخبرني بأسمائهم وأسماء آبائهم⁽¹⁾ ، وفيهم نزل قوله تعالى :
﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾⁽²⁾.

ويسجل القرآن الكريم موقف مجموعة أخرى تخلفت عن الرسول وعن غزوة تبوك كما يصفهم القرآن خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ولكن الروايات اختلفت في عددهم ولكنها اتفقت على انه أبو لبابة وأصحابه وثقوا أنفسهم بالسواري حتى يعفي عنهم الله ورسوله⁽³⁾ .

كما في قوله تعالى : ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ → خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ... لا .⁽⁴⁾

وهناك فئة ثالثة تخلفت عن رسول الله في هذه الغزوة ليس شكاً ولا نفاقاً ولم يعتذروا بحجة ولم يكذبوا على رسول الله وقد ضاقت عليهم الدنيا بما رحبت وخاصة بعد مقاطعة الرسول والمسلمين لهم كما في قوله تعالى : ﴿وَ عَلَى الثَّلَاثَةِ

(1) الواقدي ، المغازي ، 1043/3 ؛ المقريزي ، أمتاع الأسماع ، 478/1 .

(2) سورة التوبة ، الآية : 74 ؛ ابن كثير ، تفسيره ، 356/2 .

(3) الطبري ، تفسيره ، 15-14/11 .

(4) سورة التوبة ، من الآية : 103-102 .

الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ . . . لَا (1) ، وهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية (2) ، ثم يسجل القرآن موقفاً مخالفاً لموقف هؤلاء جميعاً وهم المؤمنون الصادقون كما في قوله تعالى : «وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ» (3) ، وعلى الرغم من هذه الظروف الصعبة استطاع الرسول (ﷺ) أن يجهز جيشاً يتألف من ثلاثين ألف ، وقد حقق هذا الجيش انتصارات باهرة بحيث أن سكان القرى والتجمعات الأخرى المجاورة أعلنوا خضوعهم للمسلمين فصالحوا المسلمين على الجزية (*) ، مثل دومة الجندل وإيلة وتيماء .

نهاية الصراع وعام الوفود :-

ويذكر أن أول من وفد على رسول الله (ﷺ) وفد مزينة من مضر معلنين إسلامهم ، في سنة خمس للهجرة ، فقال لهم رسول الله (ﷺ) : (أنتم مهاجرون حيث كنتم فارجعوا إلى أموالكم فرجعوا إلى بلادهم) (4) ، إذن منذ ذلك الحين بدأ وفود العرب على رسول الله في المدينة ويذكر أيضاً أنه بعد فتح مكة ، وفراغ الرسول (ﷺ) من تبوك وأسلمت ثقيف (**) وبايعت .

(1) سورة التوبة ، من الآية : 118 .

(2) ابن هشام ، السيرة ، ق 531/2 .

(3) سورة التوبة ، الآية : 92 ؛ ابن حبيب ، المحبر ، ص 281 . حيث أورد أسماء من أشار إليهم القرآن .

(*) الجزية : وهي ضريبة مفروضة على رؤوس أهل البلاد المحررة الذين لم يدخلوا الإسلام وبقوا على دينهم من أهل الذمة . ينظر : ياسين ، نجمان ، تطور الأوضاع الاقتصادية في عصر الرسالة

والراشدين ، بيت الموصل ، (الموصل-1988) ، ص 122 .

(4) ابن سعد ، الطبقات ، 291/1 ؛ اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، 63/2 .

(**) ويذكر أن رسول الله (ﷺ) دعا لهم : (اللهم اهد ثقيفاً) ، وعند مجيئهم المدينة مسلمين ضرب لهم

قبة في المسجد ؛ لمزيد من الإطلاع . ينظر : ابن شبة ، تاريخ المدينة ، 276-270/1 .

وجاءت إليه وفود العرب من كل حذب وصوب في سنة تسع للهجرة ، وسمي هذا العام بعام الوفود⁽¹⁾ ، ويذكر سبب تزايد قدوم هذه الوفود على المدينة إن العرب كانت تتقرب أمر الصراع ما بين الرسول (ﷺ) وبين قريش لأن قريشاً إمام الناس وهاديهم وأصحاب بيت الله الحرام ، فلما فتحت مكة ودخلت قريش الى الإسلام كسرت كل الحواجز والموانع لإسلام القبائل العربية ، وعرفت العرب أن لا طاقة لها بحرب رسول الله (ﷺ) ، فجاءوا أفواجاً أفواجاً معنيين إسلامهم⁽²⁾ ، فكان قدومهم نصر الله ، والفتح و فتح مكة ، وبفضل الله ونعمته . كما في قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَجَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۖ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝ (3) .

لقد ساعد مجيء الوفود على تيسير انتشار الإسلام في جميع أنحاء الجزيرة العربية ولكن هناك اقلية لم تتصل بالمدينة ، وبقي من بين الرجال من القبائل أناس لم يدخلوا في الإسلام فيجب أن تحدد هذه الجماعات موقفها من الإسلام بعد أن أصبح ديناً ودولة فأعلن النبي (ﷺ) في نهاية العام التاسع للهجرة بياناً عرف (ببيان براءة) وهو بوحى من الله⁽⁴⁾ ، وكان انصب وقت لإعلان هذا البيان وأفضل وسيلة دينية وإعلانية وهو موسم الحج حيث تجتمع العرب من كافة أنحاء الجزيرة العربية مسلمين وغير مسلمين في مكة وكان على موسم الحج لهذا العام أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) أميراً على رأس ثلاثمائة مسلم لأداء فريضة الحج ، وعند نزول الآيات في سورة براءة^(*) وبسبب انشغال الرسول باستقبال الوفود القادمة الى المدينة ، لا يستطيع أن يذهب إلى مكة لإعلانها قال(ﷺ): (لا يؤدي عني إلا رجل

(1) ابن هشام ، السيرة ، ق2/559 ؛ ابن شبة ، تأريخ المدينة ، 1/270 .

(2) ابن هشام ، السيرة ، ق 559/2 ؛ ابن سعد ، الطبقات ، 291/2-359 .

(3) سورة النصر ، الآية : 1-3 ؛ ابن هشام ، السيرة ، ق/256 ؛ ابن سعد ، الطبقات ، 291/2-359 .

(4) الطبري ، تاريخ الطبري ، 122/3-123 .

(*) سورة براءة أو التوبة : الآية من 1-37 ؛ الشريف ، مكة والمدينة ، ص 532-535 ، وتألف

الإعلان من سبع وثلاثين آية من سورة براءة .

من أهل بيتي⁽¹⁾ ، والعرف يقضي بان يقوم بنبذ العهد صاحب العهد نفسه أو رجل من عصبته شديد القرابة به ، فأرسل علي بن أبي يطالب (◀) وطلب منه أن يلحق بأبي بكر الصديق (◀) في مكة وقال له : (اخرج بهذه القصة من صدر براءة وأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى ، انه لا يدحل الجنة كافر ، ولا يحج العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ، من كان له عند رسول الله (ﷺ) عهد فهو له الى مدته⁽²⁾ ، فخرج علي (◀) فأقام أبو بكر للناس الحج والعرب في تلك السنة على منازلهم من الحج التي كانوا عليها في الجاهلية حتى إذا كان يوم النحر قام علي ابن أبي طالب فأذن بالناس بالذي أمره به رسول الله (ﷺ)⁽³⁾ ، فاعلن بيان براءة إن الله بريء من المشركين وانه لا عهود بينهم وبين الدولة الإسلامية ، وان الذين سبقت لهم عهود محدودة بأجل معلوم فلم ينقضوها شيئاً ولم يعينوا على المسلمين أحداً ، توفى إليهم عهودهم إلى مدتهم ثم لا تجدد ، ثم جعل أجل المشركين أربعة اشهر ليتفكروا في وضعهم فأما يعلنوا إسلامهم وينظموا للدولة الجديد والا يُعدّون خارجين عليها متمردين على نظامها⁽⁴⁾ ، كما في قوله تعالى : ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ⇒ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُحْزِي الْكَافِرِينَ ⇒ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾⁽⁵⁾ .

ثم قوله تعالى : ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَاتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

(1) ابن هشام ، السيرة ، ق 545/2 ؛ ابن سعد ، الطبقات ، 169/2 .

(2) ابن هشام ، السيرة ، ق 545/2 .

(3) ابن هشام ، السيرة ، ق 546/2 .

(4) الطبري ، تاريخ ، 124-122/3 .

(5) سورة التوبة ، الآية : 1-3 .

الْمُتَّقِينَ ⇒ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا
الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخَذُواهُمْ
وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَاتَّوُوا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ لَا
(1)

وجاء في سورة براءة أيضاً سبب تحريمه (⇒) دخول المشركين البيت
الحرام : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ
فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ
هَذَا... لَا» (2) .

وهو أن لا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف أحد بالبيت عريان ، كما
اعتاد بعض منهم في الجاهلية (3) .

أما الوفود التي قدمت على الرسول (ﷺ) من القبائل العربية التي جاءت
لتعلن إسلامها فكثيرة منهم وفد تميم وفيه من أشرافهم منهم الأقرع بن حابس
التميمي ، فلما دخلوا المسجد نادوا رسول الله (ﷺ) من وراء حجرات أزواجه أن
اخرج إلينا يا محمد فأذى ذلك رسول الله (ﷺ) فعاتبهم (⇒) قائلاً : «يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ
وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ
أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ» (4) .

أي لا تجهروا له بالقول أو تنادوه كما ينادي بعضكم بعضاً (5) ، ووصفهم
بقوله تعالى : «إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ» (6) .

(1) سورة التوبة ، الآية : 4-5 .

(2) سورة التوبة ، من الآية : 28 .

(3) ابن هشام ، السيرة ، ق 547/2 .

(4) سورة الحجرات ، الآية : 2 .

(5) الطبري ، تفسيره ، 118/26 .

(6) سورة الحجرات ، الآية : 4 .

وفي ذلك أعطى الإسلام للبدو (الأعراب) الذين عرفوا بخشونتهم دروساً تربوية في مخاطبة ذوي الشأن بخفض الصوت وإظهار الاحترام خصوصاً وإن الرسول (ﷺ) لم يكن رجلاً كسائر الناس وقد اعتاد المسلمون على مخاطبته بكل إجلال واحترام .

وأيضاً من الوفود التي قدمت المدينة ، وفود أسد وفزارة ومرة وثعلبة وكلاب وقشير والبيضاء وكنانة وبهراء ، ووفود أخرى دون تحديد تأريخ قدومها هي : وفد محارب وعبس وهلال وعامر بن صعصعة ، وجعده وباهله ، وطيء وجذام وحنيفة وبكر بن وائل وتغلب⁽¹⁾ ، ويذكر اليعقوبي⁽²⁾ : (ولكل قبيلة رئيس يتقدمهم) .

وكانت هذه القبائل تأتي معلنة إسلامها ولكن بعض الوفود عقدت معاهدات لغرض الحصول على الحماية كما فعل وفد نصارى نجران مقابل أداء مبلغ من المال الى المسلمين⁽³⁾ ، ولكن بعض الوفود رجعت ولم تسلم كما يذكر اليعقوبي⁽⁴⁾ ، مثل وفد عامر حيث رجع عامر بن الطفيل ولم يسلم لأنه لم يحصل على المكاسب السياسية التي رغب فيها وكذلك مفاوضات وفد ثقيف التي انتهت بإسلامهم⁽⁵⁾ .

إذن ليس غرض كل الوفود الإسلام وإنما بعضها اسلم لدوافع سياسية وهذا ما يوضح سبب ردة القبائل العربية على الإسلام بعد وفاة الرسول (ﷺ) .

لقد حقق النبي في السنة الأخيرة من حياته وحدة الجزيرة العربية وبذلك تمت معجزة أجيال في نحو عقد واحد من الزمن ، فالأمة التي كانت منقسمة على نفسها بالعصبية تغزو بعضها بعضاً ويثأر الأخ فيها من أخيه أصبحت بفضل الإسلام وبحكمه النبي (ﷺ) أمة واحدة ودولة واحدة⁽⁶⁾ .

إذ لم يذكر التأريخ أن شيخاً من رؤساء القبائل أو ملكاً من ملوك الدول استطاع أو جرب أن يوحد القبائل تحت راية ملك أو وطن أو دين في كل تأريخ

(1) ابن هشام ، السيرة ، ق2/559-599 ؛ ابن سعد ، الطبقات ، 1/291-356 .

(2) تأريخ اليعقوبي ، 1/13 .

(3) ابن سعد ، الطبقات ، 1/357-358 .

(4) تأريخ اليعقوبي ، 1/63 .

(5) المصدر نفسه ، 1/63 .

(6) عبد اللطيف الطيباوي ، محاضرات ، ص17 .

العرب من أقدم أزمانه إلى مبعث الرسول (ﷺ) فهو الذي استطاع أن يروّض القبائل على اعتبار قرابة الدين بدلاً من قرابة الدم ، ونجاحه (ﷺ) في هذه الناحية لا يقل في أهميته ولا في أثره عن نجاحه في تحويل العرب عن عبادة الأصنام إلى عبادة الله ، فرسالته لم تقتصر على نشر دين جديد ، بل شملت أيضاً إنشاء نظام جديد ، ودولة جديدة على أساس ذلك الدين⁽¹⁾ .

وإذا كان محمد (ﷺ) بحاجة إلى معجزات غير المعجزات المعروفة عنه تقوم دليلاً على عظمته وعبقريته فتوفيقه في توحيد العرب هو من معجزاته الكبرى⁽²⁾ .

(1) عبد اللطيف الطيباوي ، محاضرات ، ص 12-13 .

(2) المصدر نفسه ، ص 17 .